جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العربية العليا

الخطابة في العصر الإسلامي

بحث لدرجة الماجستير في الأدب العربي

إعداد:

الطالبة فوزية عباس خان

بإشراف:

الدكتور محمد نبيه حجاب

١٤٠١ هـ

١٩٨١ م

جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العربية العليا

* * * * *

الخطابة في العصر الاسلامي

بحث لدرجة الماجستير في الأدب العربي

اعداد

الطالبة فوزية عباس خان

باشراف

الدكتور محمد نبيه حجاب

١٤٠١ هـ
١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت ادب التراث ، ولكن الغالبية العظمى تناولت جانب الشعر اما النثر فكان حظه من تلك الدراسة قليلا ، فأهمني ذلك ، واتجهت اليه ، لأصل منه رحما مجفوة.

هذا . وقد بدا لى وانا اقرأ في خطب العصر الاسلامى أن بها قيما بلاغية لم تتناولها الدراسات الحاضرة على الرغم من نفاستها ، وانها لا تزل مخبوءة في اصدافها ، فالمحاولات السابقة ، التي ظهرت في هذا المجال كلها تدور في فلك واحد حول المنهج التاريخى ، وعلى الرغم من أهميته فانى أرى أن الأهم من ذلك ، تناول النصوص الادبية نفسها بالدراسة وهذا هو الجديد في بحثى هذا الذى أتقدم به اليوم لدرجة الماجستير في الأدب العربى .... ومما زادنى اقداما على ذلك انى رأيت الكثير من أدب التراث شعرا ونثرا يعاد طبعه عاما بعد عام من غير شرح ، اللهم الا القليل من المفردات الغامضة ، وليس ذلك بعظيم جدوى ، فان وفقت فيما أقدمت عليه - وهذا ما أرجو - فقد أديت للأدب حقا حان اداؤه ، والا فحسبى أننى لفت النظر الى هذا اللون من الدراسة ، ومهدت السبيل اليها بعض الشئ ما وسعنى ذلك .

هذا ، وقد رأيت أن أمهد للبحث بكلمة عن (فن الخطابة) ونشأته ومقوماته وأغراضه والى اى حد كان مستواه في العصر الجاهلى ، وتطوره من الدعوة للقتال الى الدعوة للدين الجديد ، وبعد ذلك فالبحث يقع في ثلاثة أبواب وخاتمة ، أفردت :

الباب الأول :

للخطابة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين ،

والباب الثاني :

للخطابة في عصر بني أمية مع الكشف عن الخصائص الأدبية التي غلبت عليها في هذه الفترة من الزمن ومدى تأثرها بأسلوب القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

اما الباب الثالث:

فقد تناولت فيه بالترجمة أعلام الخطابة البارزين الذين طغت شهرتهم الآفاق في هذا المجال من امثال الامام علي رضي الله عنه ، وزياد والحجاج ، أولئك الذين لا يذكرون الا وتذكر معهم الخطابة ، وكأنها من صفاتهم اللازمة ،

وأما الخاتمة :

فقد لخصت فيها البحث بايجاز .

(وبعد) فهذا اول انتاج لي في البحث الأكاديمي ، يسرني أن اتقدم به الى المكتبة العربية خالصا لوجه الله والأدب ، وأرجو من الله حسن القبول ...

فوزية عباس خان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير وتمهيد

يراد بالعصر الاسلامي تلك الفترة الزمنية التي بدأت بظهور الاسلام وانتهت بقيام الدولة العباسية ، وهي بهذا التحديد الذى عليه أكثر الباحثين ، تشمل عصر النبوة ، والخلفاء الراشدين ، وبني أمية .

وحرى بنا - ونحن نؤرخ للخطابة في عصرها الذهبي - أن نلقى نظرة على ما كان من أمرها في العصر الجاهلى ، حتى يتضح لنا مدى تأثرها ببلاغة الاسلام ومعجزته الخالدة القرآن الكريم .

وحرى بنا قبل ذلك أن نصدر البحث بكلمة موجزة للتعريف بهذا الفن ، الذى هو ضرورة من ضرورات المجتمعات البشرية ، من حيث مدلوله ، ومقوماته ، ودواعيه ، واغراضه ، فنقول :

الخطابة : هى فن مشافهة الجمهور ، وهي جنس أدبي يعتمد على عنصرين أساسيين هما : الاقناع ، والاستمالة .

وأسس الخطابة ثلاثة : الخطيب ، والجمهور ، والموضوع .

ويقال ان تعريفها بفن الكلام الجيد أو القدرة على النظر في كل ما يوصل الى الاقناع في أى مسألة من المسائل فيه قصور (١) . لان الاقناع وحده لا يكفي فلا بد من الاستمالة وامتلاك عواطف السامعين .

---

(١) الخطابة لأرسطو /١٠٠ ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة .

ومما لا شك فيه ان الكتابة تعتمد على العقل ، والشعر قوامه الخيال ، ومثله الخطابة غير أنها تعتمد ايضا على قوة الاقناع مع جمال الايقاع واثارة العاطفة . يقول( ) ان الخطيب لا يتحدث الى عقول السامعين فحسب بل يحاول ان ينفذ كذلك الى عواطفهم ، ومن ثم الى ارادتهم .(١) وقديما قيل ان البلاغة هي الخطابة ،فمتى اقتنع السامع بقول الخطيب استجاب لدعوته ، وصار من أنصاره وجماعته . فلا عجب ان كانت بلاغ النبيين وعدة القادة والمصلحين .

---

(١) الخطابة لأرسطو ١٠٠/ ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة

نشأتها ودواعيها :

نشأة الخطابة مرتبطة بنشوء الجماعات وقيام المجتمعات لذلك لم يخل تاريخ الأمم القديمة وأدابها من الخطابة .

ففي آثار المصريين القدامى خطب دونت بالهيروغليفية وللأشوريين خطب كذلك ، وكانت راقيه عند اليونان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة قرون وانشئوا لها المدارس وكذا المنطق الفصيح ، ومن اقدم هذه المدارس مدرسة سقراط ولهم خطباء عظام مثل ديموستنيس وبركليس .

أما عند الرومان فلم تكن مزدهرة الا في القرن الثاني للمسيح عليه السلام لاصطباغها بالدين ، ومن خطبائهم بوليوس قيصر وغيره .

وعند العرب الجاهليين قبل الاسلام خطابه قويه لتلون عناصر الخطابة عندهم ، فهم أهل الكلمة البليغة ، والحجة الدامغة ، والشجاعة النادرة وكان فيهم سادة مقدّمون ذوو بيان ولسن ، وأنه كان لهم من اشراف عشائرهم خطباء مصاقع يقومون فيهم مقام المؤدبين من الولاة في الأمم ذات النظام الثابت ، والدولة القائمة ، وكان لهذا الفن من الكلام دواعي حاضره تكون في كل جماعه تضمهم رقعة من الأرض وذلك لأن العرب كغيرهم من الأمم كانوا خاضعين لضرورة الاجتماع البشرى الذى يحتم على القبيل من الناس ان يلقوا بايديهم الى واحد منهم يتميز بما دون سائرهم من فضل العقل وبسطة الغنى وقوة البأس أوما يشبه ذلك ، مما يضير الناس الى التسليم له اختيارا من عند انفسهم وهذا معنى ما قاله علماء الاجتماع (ان الملك منصب طبيعي في الانسان ، اذ لا ينبغى ان يكون الأصل في معنى الملك

شيئا أكثر من هذه السيادة الناشئة عن هذا التفوق الطبيعي لبعض أفراد الجماعة على بعض .

وما الجماعات والأمم الا أمثلة مكبرة للاسرة الصغيرة فالعرب لم تكن لهم دولة ولم يجمعهم ملك ، ولا انتظمتهم شريعة ، فكان حتما عليهم ان يخضعوا كما خضع سائر البشر لهذه الظاهرة الاجتماعية السابقة تلك التي كانت السيادة فيها مصدرا للهداية ومادة للاصلاح ، واستتبع ذلك بالضرورة الحاجة الى استعمال الجارحة التي هي في الحقيقة مترجمة عن الفكر مؤدية الى هذه المعونة الاجتماعية وهي (اللسان) وكانت الحاجة الماسة هي التي فتقت لهم وجه الحيلة في تأليف هذا النوع من الكلام .

ونشأت حينئذ الخطابة تالية في الوجود لاستقرار الجماعات البشرية وظهور هذه الرياسات المختلفة وهي لا تزيد في معناها على أن تكون كلاما له شأنه من التأثير يلقى على جمع من الناس لاقناعهم بما فيه الخير لعامتهم في معاشهم ومعادهم ، وقد جرت العادة ان يكون بطش الحكام متأخرا في الوجود عن الاعذار في الكلام ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف كانت الخطابة صفة لازمة للانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يبلغون عن ربهم من الدعوة الى الهدى ودين الحق . وكيف كانت عماد القادة من هداة الأمم ويتقدمون بها في مفاتيح الانقلابات العامة حين يتجرد المصلحون منهم للدفاع عن مذاهبهم والانتصار لآرائهم وحمل الناس على اتباع سبيلهم فكيف يستفحل شأنها حين يستمر النزاع بين الأمة الواحدة وبين الأمم المجاورة على تجاذب المنافع المؤدية الى كثير من الوان الخصومات السياسية والمذهبية . وكيف تصير الى الفتور والسكون حين تبلغ قمة

الأمن والاستقرار والنظام وقيام الحدود العادلة من الشرائع المنزلة والقوانين الالهية وحين ينبعث الناس لوجوه معايشهم في ظل هذه الطمأنينة الشاملة .

وهناك دواعي اخرى توشك ان تكون خاصة بالعرب في هذا العهد (الجاهلي) دعت الى بلوغ الخطابة عندهم درجة قاربت حد النضوج والكمال ومن أهمها تأصل ملكة البيان فيهم وصيرورة الكلام صناعة لهم وتداعيهم الى شهود المواسم الجامعة للتفاخر بالملكات الأدبية عندهم ، كما كان يحدث في سوق عكاظ وغيره ، وشيوع الأمية بينهم ، ومن هذه الأمية المعتمدة على الحافظة والذاكرة نشأت سرعة البديهة واسعاف الخاطر مما جعل أبا حيان يروى في مقابساته (نزلت الحكمة على رؤوس الروم والسنة العرب وقلوب الفرس وايدى الصين .. وقد زادتهم جزيرتهم شرا ولكنهم عوضوا الفطنة العجيبة ـ والبيان الرائع والتصرف المفيد والاقتدار الظاهر ..

ووصلوا بحدة الذهن الى كل معنى معقول وصار المنطق الذى بانت به غيرهم من الاستخراج مركوزا في أنفسهم من غير دلالة عليه .... بل فشا فيهم كالالقاء والوحي ، لسرعة الذهن وجودة القريحة . (١)

واضافة الى شيوع الأمية تباعدهم في ديارهم واستقلالهم في عشائرهم وهم أهل حل وترحال والضرورة ماسة الى ان يقوم الوافد الرفيق لهم مقام الرسائل الضافية في سفارات الصلح وعقد المحالفات وتأمين السبيل وكانت بعد ذلك حروبهم وأيام منافراتهم واندية ساداتهم مثارا لهذه

---

(١) المقابسات لابي حيان ، فن الخطابة ص ٤٦ د . احمد الحوفي

الخطب يقصرونها أو يطنبون فيها على مقتضى الاحوال الداعية والمقامات المختلفة ولو كان العرب يكتبون في الرقوق و ينقشون على الاحجار كغيرهم من الأمم لاستطاع الناس أن يجدوا من آثار بلاغتهم في المساجلة والخطب والمحاورات شيئا كثيرا غير أنك تعد كثيرا من اسماء خطبائهم وساداتهم ولا تجد لهم أو لاكثر منهم شيئا يذكر ومن خطبائهم عتبة بن ربيعة وسهيل بن عمر الأعلم • (١)

ولكن لا نوافق بعض الباحثين الذين يشتط بهم القول فيقررون أن ليس للعرب خطابة ممتازة • انما استحدثت في الاسلام (٢) استحدثها النبي والخلفاء • نقول وجدت خطابة في العصر الجاهلي ولكن ازدهرت في العهد الاسلامي بفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاغة خلفائه الراشدين ثم كان ما كان من اشتعال العصبية السياسية بين الاحزاب المتنافرة والفرق المتناحرة ، والخطابة به دائما تزدهر في حومة القتال وبين ظلال السيوف •

ومما ساعد على ذلك ايضا رسوخ ملكة البيان في نفوسهم يقول الرافعي :

(ليس في الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل الجزيرة فما كان كالبيان آنق منظرا ، وابدع مظهرا وأمدّ سببا الى النفس وأرد عليها بالعاقبة ، الى قوله وأى شيء في تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية • (٣)

---

(١) البيان والتبيين ج ١ / ٦٥

(٢) الأدب الجاهلي ص ٣٥٤ وما بعده للدكتور طه حسين

(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٧٧ مصطفى الرافعي

وقد قام صراع عنيف بين الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه الداعين للاسلام ، وبين انصار هبل واللات حتى كانت الغلبة لرسول الله عليه افضل الصلاة والسلام •

وحين قامت الدولة الأموية سنة ٤٠ هـ انقسم المسلمون الى شيع دينية وسياسية ولكل حزب خطباؤه اصحاب خبرة وتجارب ومنطق ولسن تحكمهم عواطفهم الثائرة التي تدفع بقوة موج الخطابة ، ثم عادت الى سابق عهدها رنة الفخر بالعصبية القبلية التي اخمد نارها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ازدادت تشربا للروح العربية وقربا للفصاحة البدوية فنجد ذلك في خطبة زياد البتراء ، وبعض الخطب تتجلى فيها روح التشيع لآل البيت ويجعلون لهم صفات خاصة في خطبهم وسوف نتناول هذا بالبحث والتفصيل والاستشهاد لما نقول •

والله يهدى للتى هي أقوم •

مقومات الخطابة

ان لهذا الفن العظيم خصائص ومواصفات لا بد من توافرها في عملية الخطابة وأهم ركن فيها هو الخطيب ، وهو محور الدائرة في العملية الخطابية ، ومن ثم فقد وجب ان تتوفر فيه بعض الشروط في المظهر والمخبر .

أ — شروط المخبر :

١ — جهارة الصوت وقوته وهو آلة اللفظ :

فكلما كان صوت الخطيب جهوريا كان أقدر على امتلاك اسماع الجمهور فقد نفع الله المسلمين بجهارة صوت العباس بن عبد المطلب يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى العباس يا اصحاب سورة البقرة هذا رسول الله فتراجع القوم وانزل الله عز وجل النصرة وأتى الفتح . (١)

٢ — السلامة التامة في الجهاز الصوتي

وذلك بخلوه من العيوب العضوية التي تعوق مخارج الحروف .

٣ — الوقف والحركة :

يجب ان يكون في موقع باد للعيان حتى يكون منشور السلطان وهذا مما يجعله مسموع الكلمة ومن ثم كان الخطباء القدامى يقفون على مرتفع من الأرض أو فوق رابية ، وعليه الا يقف جامدا كالتمثال كي لا يكون ثقيلا على الجمهور ، والا يسرف في اشاراته وحركاته كي لا يستخفوا به .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ / ٣ ١٢٣

ب - المخبـــر :

وهوما يجب توفره في الناحية المعنوية وأولها :

١ - قوة الشخصية :

وهي الركيزة الاولى التي تقوم عليها الخطابة . فالخطيب لا بد ان يكون رابط الجأش عند مواجهة الجماهير قال عبد الملك بن مروان : شيبني صعود المنبر والخوف من اللحن.(١)

٢ - سعة الثقافة :

ثقافة الخطيب هي كنزه الذى جمعه من كل فنون المعرفة فالخطيب يقف امام كتلة بشرية متنوعة المعارف متباينة العقول والمدارك فيجب ان يكون على دراية باسلوب مخاطبيه ومن ثم تتكون لديه القدرة على خطاب الجميع ويصنع كلامه في النفوس صنع الغيث في التربة الكريمة . وفي عصور الثقافة لا بد للخطيب من الاطلاع ليضيف الى عنصر المعرفة عنده عناصر أخرى .

٣ - الشجاعة الأدبية :

هي هبة من الخالق جل وعلا توجد في الانسان وتنمو بنموه وتعتبر من مستلزمات الخطيب . هذا غلام لمايبلغ الحلم بشجاعته النادرة وجرأته المهذبة جعل الخليفة يعدل عن رأيه . يقال لما استخلف عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه قدم عليه وفود المهنئين من كل جهة . فتقدم من وفد الحجاز بين غلام صغير للكلام لم تبلغ سنه احدى عشرة

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ٢

ستة فقال له عمر : ارجع وليتقدم من هو أسن منك ، فقال الغلام : أيد الله أمير المؤمنين المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا ، وقلبا حافظا فقد استحق الكلام ولو ان الامر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا .. فقال عمر : - صدقت يا غلام / تكلم فهذا السحر الحلال . فقال يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة (١) قدمنا اليك من بلدنا نحمد الله الذى منّ بك علينا لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة لاننّا قد أمنا في ايامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا . فقال : عظنا يا غلام واوجز ، قال نعم يا أمير المؤمنين أن أناسا غرّهم حلم الله عنهم ، وطول املهم ، وحسن ثناء الناس عليهم فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول املك ، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك .

فتعجب عمر من كلامه وانشأ :

تعلم فليس المرء يولد عالما … وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده … صغير اذا التفت عليه المحافل (٢)

٤ - معرفته بنفسية السامعين :

الخطيب الناجح هو الذى يراعي حال مخاطبيه ، فمثلا حين اضطراب النفوس وخوفها يوجز القول ، ويبث روح الطمأنينة فيهم ويذكر بالجزاء العظيم في الدنيا والاخرة والالمام بهذا، علم النفس الاجتماعى كفيل به .

---

(١) المرزئة - المصيبة

(٢) روائع الأدب ص ٢٣٢ د . محمد نبيه حجاب عن مروج الذهب جـ٢/١٦٩ وزهر الاداب جـ ١/٩

٥ ـ حضور البديهة :

بالبديهة الحاضرة يكون التخلص من مفاجئات المواقف التي لم تكن في الحسبان وهذا العنصر عموده الدربة ، والخبرة والثقافة الواسعة والالمام بكثير من المسائل ، فاذا توفرت هذه الشروط في الخطيب عزّ جانبه وتدفق بيانه بروائع الكلام .

أغراضها :

اصطنع العرب الخطابة في العصر الجاهلي لان طبيعة الحياة القبلية البدوية تستدعي وجودها الى جانب الشعر ، ولقد ذكرت فيما سلف أن الاميّة كانت منتشرة في ذلك العصر ، وإذ لم تكن الكتابة شائعة بينهم/ فقد استعاضوا عنها بالخطابة فاتسع مجالها وتعددت اغراضها منها :

الحض على القتال :

كان العرب في تناحر دائم ـ كما نعلم ـ فالقبيلة امّا طالبة أو مطلوبة واما غالبة او مغلوبة فهذا هانيء بن قبيصة الشيباني يخطب في قومه حاضا اياهم على قتال الفرس يقول :

يا معشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور ، ان الحذر لا ينجي من القدر وان الصبر من اسباب الظفر ، المنية ولا الدّنيّة ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر (١) النحور ، أكرم منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ،قاتلوا فما للمنايا من بدّ . (٢)

---

(١) ثغر النحور : النحور جمع نحر وهو العنق (كناية عن المواجهة)
(٢) جمهرة خطب العرب ج ١ / ٣٧

وحين يشتد الخصام وتدور بينهم المعارك الثقال التي تطحن المتقاتلين يتدخل بعض سادة القبائل وأشرافهم في اصلاح ذات البين واحلال السلام مكان الحرب ، ومن اشهر الخطب في هذا المقام خطبة قيس بن خارجة التي قالها في اثناء حرب داحس والغبراء ، ومرثد الخير في خطبته التي أراد بها الصلح بين سبيع بن الحرث وميثم بن مثوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف وتشاحنا وخيف أن يقع بين حييهما شرّ فأحضرهما ليصلح بينهما وقال لهما :

لا تنشطوا عقل (١) الشوارد ، ولا تلقحوا العون القواعد (٢) ولا تؤرثوا (٣) نيران الاحقاد ، ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة (٤) والأبلة (٥) وعضوا بالحلم أبلاد (٦) الكلم ، وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد فان الحرب تقبل بمزبرج (٧) الغرور وتدبر بالويل والثبور ، ثم قال الملك :

ألا هل أتى الأقوام بذلي نصيحة ... حبوت بها منّى سبيعا وميثما

الى قوله :

ولا تجنيا حربا تجر عليكما ... عواقبها يوما من الشر أشأما

فان جناة الحرب للحين عرضة ... تفوقهم منها الذعاف المقشما (٨)

حذار فلا تستنبثوها ، فانها ... تغادر ذا الأنف الأشم مكشما (٩)

---

(١) نشط العقده : عقدها ، وأنشطها حلها ، والعقل جمع عقال وهو الحبل

(٢) هو مثل ، واصله في الابل ، يقال : لقحت الناقة اذا حملت ، ثم ضرب مثلا للحرب اذا ابتدأت والعون : جمع عوان وهى الشيب ، يقال للحرب عوان اذا قوتل فيها مرة بعد مرة

(٣) تذكوا

(٤) الجائحة : المصيبة الكبرى

(٥) الثكل

(٦) الابلاد : الاثار واحدها بلد

(٧) السحاب الذى تسفره الريح والزينة

(٨) تفوقهم : تسبقهم الفواق (وهو ما بين الحلبتين ، والذعاف السم ، المقشم المخلوط

(٩) هو مثل : أى لا تخرجوا نبيثتها ، يريد لا تثيروا الحرب ، مكشما : مقطوعا

فقالا : لا أيها الملك ، بل نقبل نصحك ، ونطيع أمرك ، ونطفىء الثائرة (١) ونحل الضغائن ، ونثوب الى السلم (٢)

٣ - خطب المنافرات والمفاخرات :

وهناك فرق بين المفاخرة والمنافرة . فالمفاخرة هي تفاخر العرب بعضهم على بعض بالحسب والنسب والعزة وكثرة العدد والعدة كما في قول عمرو بن كلثوم :

اذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا

وكما حدث في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاء وفد تميم بشاعرهم وخطيبهم يفاخرون الرسول ، وأن ليس في ارض الحجاز كدارم فأجابهم خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس فخرا اسلاميا وعزا محمديا .

المنافرة : هي التحاكم الى الاشراف من حكام العرب ليفصلوا بينهما ويقضوا بالشرف لوحدهما . وهذه منافرة علقمة بن علاثه وعامر بن الطفيل العامريين .

وكان ذلك حين هرم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة فتنازع العامريان على الرياسة فقال علقمة : كانت لجدي الأحوص ، وانما صارت لعمك ، بسببه ، وقد قعد عمك وأنا استرجعها ، فأنا أولى بمانك

---

(١) الثائرة : العداوة والشحناء

(٢) الامالي جا ١ / ٩٢

فسرى الشر بينهما ، وسارا الى المنافرة .

فقال علقمة : ان شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت ، فتنافرا

قال عامر : انى والله لأركب منك في الحماة ، وأقتل منك للكماة (١) وخير منك للمولى والمولا ، : فقال له علقمة : والله انى لبر وانك لفاجر وانى لولود ، وانك لعاقر (٢) وانى لعف وانك لفاجر وانى لوفى ، وانك لغادر ففيم تفاخرنى يا عامر .

فقال عامر : والله انى لانزل منك للقفرة (٣) وأنحر منك للبكرة (٤) وأطعم منك للهبرة (٥) ، وأطعن منك للثغرة . فقال علقمة : والله انك لكليل البصر ، نكد النظر ، وثاب على جارتك بالسحر ، وظلا يتنافران واحتكما الى أبي سفيان بن حرب بن أمية ولم يقل شيئا ، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما ، فانطلقا الى ابى جهل بن هشام ، ثم الى عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى ان يقول شيئا ، فأتيا غيلا ن بن سلمة فردهما الى حرملة ابن الاشعر المرّى فردهما الى هرم الفزارى .

فقال هرم لأحكمن بينكما ثم لأفصلن فاعطيانى موثقا أطمئن أن ترضيا بما أقول وتسلما لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف ، فاحتال

---

(١) جمع كمى وهو الشجاع

(٢) لم يولد له ولد

(٣) المكان الموحش ، الخلاء من الأرض

(٤) البكرة : الفتية من الابل

(٥) الهبرة : قطعة مجتمعه من اللحم

للأمر بحيلة – تدل على رجاحة عقله – لئلا ينفر أحدهما على الآخر .
وفي اليوم الموعود جلس في مجلس ، وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام هرم فقال يا بني جعفر ، قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير الأدرم تقعان الى الأرض معا ، وليس فيكما أحد الا وفيه ماليس في صاحبه وكلاكما سيد كريم (١)

خطب المحافل :

تكون عادية في الزواج والتهنئة والولادة .

وهذه خطبة أبي طالب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة بنت خويلد منها : ثم ان محمدا ابن اخي من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وان كان في المال قلا فانما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما احببتم من الصداق فعلي (٢)

الوصايا :

جمع وصية وهي من ألوان الخطابة ولكن تقتصر على الأهل والاقارب وهي ثمرة تجربة وحكمة ولأناس خاصين ، أما الخطابة فتكون في جمع من الناس .

وهذه وصية أمامة بنت الحارث لابنتها عندما تزوجت عمرو بن حجر جدّ امرئ القيس (أى بنية : ان الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت

---

(١) بلوغ الأدب للألوسي جـ١ / ٢٨٨
(٢) تهذيب الكامل جـ١ / ٤

لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى ابويها ، وشدة حاجتهما اليها لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، و لهن خلق الرجال .

أي بنية : انك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا (١) يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا ، الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بالسمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا اطيب ريح ، والكحل احسن الحسن والماء اطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه ، فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله والادعاء على نفسه وحشمة وعياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والادعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمرا ، فانك ان افشيت سره ، لم تأمنى غدره ، وان عصيت أمره ، أوغرت صدره ، ثم اتقى ذلك الفرح ان كان ترحا ، والاكتئاب عنده ان كان فرحا ، فان الخصلة الاولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له اعظاما ، يكن أشد ما يكون لك اكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، واعلى أنك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك (٢)

---

(١) وشيكا : الوشيك : السريع اى : سريع الاجابة

(٢) جمهرة خطب العرب جـ١ / ١٤٦ مجمع الامثال جـ٢/ص١٤٣ ، والعقد الفريد /٣/

سجع الكهان :

وهذا النوع اختفى نهائيا بظهور الاسلام ٠

وسمى سجع الكهان لانهم كانوا يتكلمون باللفظ المسجوع ، روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت احداهما الاخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله ان دية جنينها غرة عبدا ووليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلها وورثها ولدها ومن معها فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ، ولا استهل فمثل ذلك بطل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انما هذا من اخوان الكهان " (١)

---

(١) صحيح مسلم جـ ٥/ ١١٠

الباب الأول

الخطابة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين

الفصــــل الأول

أثر الاسـلام في تطوير الخطابـة

حـين أراد الله تعالى امر رشد بالعالم كله بعث فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ومبشرا ونذيرا قال تعالى ﴿ وما ارسلناك الا رحمـة للعالمين ﴾ ، ومعجزته القرآن الذى اعجز فصحاء العرب الذين بلغـوا مبلغا من الفصاحـة والبـلاغـة لم يعرف في تاريخهـم من قبل . ثم كـان للعرب من تهذيب في اللغـة ، حتى كانت الكلمة نافذة في اكثرها لا يصدها اختلاف في اللسان ، ولا يعترضها تـناكـر في اللغـة ، حتى قامـت فيهم دولة الكـلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن (١) ببديـع تأليفـه وعجيب نظمـه وتركيبه فسحرهم بيانه ووجدوا في آدابـه قلبـا اجتماعيا استولى على تفكيرهم وتصورهم وادراكهم وجعلها فكرا واحدا ، يستمد قوتـه من خلق القرآن الذى هو أساس التشريع لا من العقل الـذى ينشأ عنه ، فعجزوا أن يأتوا بمثله ولو بسـورة واحدة ، وأثر في أدبهـم شعرا ونثرا ، وكان أول نتاج أدب الدعـوة الاسلامية الحديث النبـوى وخطبـه صلى الله عليه وسلم . فهي عدتـه في جميـع المحافل ولسان دعوتـه انبرت تشرح الدعوة ، وتوءيدها لأنها أقدر على ذكر الحقائق من الشعر وو[illegible] لتحررها من قيود الوزن والقافيـة ، ولان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخدم الشعر يقول الرافعي : " وهل ترى أعجب من أن الله تعالى منع نبيه تصحيح وزن الشعر وجعـل لسانه لا ينطـق به اذ وضعـه موضـع البلاغـة من وجهه ، ونصبـه منصب البيان لدينه ، لانـه تعالى يعلم من غيب المصلحـة لعباده

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٧٧

أنه صلى الله عليه وسلم لو أقام وزن بيت من الشعر مال عمود الدين ، ثم لتصدع له الأساس الاجتماعي العظيم الذى جاء به القرآن اذ يكون قد بني على غير أركان وثيقه ولا عماد محكم (١)

وقد قال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٢)

ترى ، ... ما أثر الاسلام ، وحجته القرآن في حياة العرب ؟

احدث الاسلام تغييرا جذريا في حياة العرب العقلية والسياسية والاجتماعية والدينية فلا معبود الا الله ولا خلود في هذه الحياة وأن ﴿ من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

فهذه التشريعات التي لم يعهدها العربي من قبل يبينها النبي صلى الله عليه وسلم في أول خطبة له بمكة حين دعا قومه بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ يقول صلى الله عليه وسلم : " ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا ، وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا (٤)

---

(١) اعجاز القرآن ٣٤٣/ / للرافعي

(٢) سورة يس الاية ٦٨

(٣) الرائد : المرسل للبحث عن الكلأ

(٤) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ج ١/١٤٧/
والكامل لابن الاثير جـ٢/١٧

فبهذه العبارات الموجزة ، وما فيها من تشبيهات محكمه ، أظهرت أسس الدين الاسلامي الحنيف ، فالشريعة تنزل في الناس منزلة المرشد المصرف للافعال على جهة بينة من الحكمة والمنفعة .

فاذن الخطابة اصبحت تسير في اتجاه مغاير عن السابق فبدلا من الحض على القتال واشعال نار الحرب والأخذ بالثأر اضحت تحث على الجهاد لاعلاء كلمة الله ونشر الاسلام وقتال العدو يقول صلى الله عليه وسلم (أوصيكم بما اوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه ، ثم انكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين ، والجد والنشاط ، فان جهاد العدو شديد كربه ، قليل من يصبر عليه الا من عزم له على رشده ، ان الله مع من أطاعه ، وان الشيطان مع من عصاه فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم فانى حريص على رشدكم . (١)

فالجهاد في سبيل الله من أعظم القربات الى الله لذلك فتح الله أوسع ابواب جنته للمجاهدين وخصهم باعلى الدرجات فيها لذلك يقول تعالى في محكم كتابه ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ (٢)

والصحابة رضوان الله عليهم يحثون على الجهاد ويذكرون بمنزلة المجاهد يقول ابو بكر رضى الله عنه في خطبته حين خروج الناس لفتح الشام :

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ج٣/٣٦٥ ، جمهرة خطب العرب ج١/١٤٩ وما بعدها . سيرة ابن هشام ج١/٣٠٠

(٢) سورة التوبة الاية /١١١/

" ألا وان في كتاب الله من الثواب على الجهاد ، وفي سبيل الله كما ينبغي للمسلم ان يجب ان يخص بها ، هي التجارة التي دل الله عليها ونجى بها من الخزى وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة " (١)

ففي أسلوبه رضى الله عنه ترغيب حين قال " هي التجارة التي دل الله عليها " وكلامه يحمل معنى الاية القرآنيه في قوله تعالى ﴿ هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ويغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ (٢)

وعندما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرغب في الجهاد ، يبين منزلة الشهيد فيقول : " والذى نفسي بيده لولا ان رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم ان يتخلفوا عني ولا اجد ما احملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذى نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل (٣) " وان للمجاهدين درجات أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله فيقول صلى الله عليه وسلم : " ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فاذا سألتم فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة

---

(١) جمهرة خطب العرب ج١ /١٨٦/ تاريخ الطبرى ج٤/٣٠/

(٢) الصف الاية /١٠/

(٣) صحيح البخارى ج٤/ ص١٢/

وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة. (١)

فخطبه صلى الله عليه وسلم في الحث على الجهاد جعلت الصحابة يضربون المثل الأعلى في التضحية وبذل النفس رخيصة في سبيل الله لنيل الشهادة وكسب الدرجة فكان أول شهيد يوم بدر من الأنصار هو عمير بن الحمام من بني سلمى صحابي جليل كان في يده تمرات يأكلهن فقال : بخ بخ انه ما بيني وبين أن ادخل الجنة الآن ان يقتلني هؤلاء فقذف التمر من يده وأخذ السيف فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضا الى الله بغير زاد الا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد (٢)

ومن اروع ما سجله أدب الدعوة الاسلامية قول عبدالله بن رواحة القائد الثالث لغزوة مؤتة يقول :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا

حتى يقال اذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا (٣)

ورغم ان النبي صلى الله عليه وسلم يحثه على الجهاد ويذكر درجات المجاهدين والشهداء ولكنه يحرم قتل النفس كما حرمها القرآن يقول

---

(١) مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة العدد الاول ص ١٧٤

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٨٨ ، والاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ / ١٢١٤

(٣) ديوان عبدالله بن رواحة دراسة وجمع وتحقيق د / حسن باجودة ص ٥٦

في خطبة الوداع : " أيها الناس ان دماءكم واموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد (١)

وأبو بكر رضى الله عنه يوصى أسامة فيقول : " ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة " (٢)

فالاسلام بتعاليمه ونظمه ، والرسول بوصاياه أوجد الجيل الأول في صدر الاسلام ، فتخرج جيل ناقض طباعه ، وخالف عاداته ، وخرج مما ألف ، وخلق على الكبر خلقا جديدا فكانت خطبه مدرسة يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل ، ويتزود العالم ، فلا الفلسفة ولا آداب العلوم قاطبة قادرة على أن تنشيء جيلا من الناس كالذى أوجده القرآن وآدابه والرسول وتعاليمه . فلا مفاخرة بالاحساب والانساب واصبح بلال العبد الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلمان الفارسى كما يقول فيه رسول الله : سلمان منا آل البيت " ثم يقرر عليه أفضل الصلاة والسلام مبدأ المساواة بين المسلمين وأن المؤمنين اخوة وكلهم لآدم وآدم من تراب . يقول عليه الصلاة والسلام :

" يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب " ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ (٣)

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢/ ص ٣١ والعقد الفريد جـ٢ / ١٣ والطبرى جـ٣ / ١٦٨

(٢) الخطابة في عصر صدر الاسلام جـ ١ / ص ٢٤٥ ، الطبرى ٣ / ٢١٣

(٣) ابن هشام جـ ٤ / ص ٥٤ والكامل لابن الاثير جـ ٢ / ١٢١

فالخطابة تبلغ تعاليم الشريعة لتهذيب النفوس وتقويم الطباع وان خلق الناس شعوب وقبائل هدفه التعارف وان اكرم الناس عند الله تعالى هو التقي لا صاحب العزة او المال . وأن هذا الاجتماع الذى أساسه التعارف ومبدؤه المساواة لا بد له من اخلاق اجتماعية مستمدة من القرآن وآدابه واحكامه . فاجتماعنا في هذه الحياة للتزود للآخرة لانها خير وابقى واننا عما قليل منتقلون وخير المجالس للمرء مجلس فقه وحكمة يقول صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله ابن رواحه انه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة والمراد مجالس العلم " (١)

ويقول صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الاموات سفر (٢) عما قليل الينا راجعون . نبوئهم اجداثهم (٣) ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كلّ واعظة وأمنّا كل جائحة (٤) . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس اهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى (٥) لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل

---

(١) ديوان عبدالله بن رواحة ، دراسة وجمع وتحقيق د / حسن باجودة ص ٥١

(٢) سفر : جماعة من المسافرين

(٣) اجداثهم : قبورهم

(٤) جائحة : مصيبة او هلاك

(٥) طوبى :

من مالـه ، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السّنة ولم تستهوه البدعة . (١)

فبلاغته وجوامع الكلم التي خص بها ، وبهذا التصوير القائم على تحليل النفوس واستشفاف البواطن ، والكشف عن الظواهر بين لنا صلى الله عليه وسلم الظاهر من أحوالنا وما يدل على تجاهلنا وغفلتنا عن الموت ، كأن هذه الحياة حياة أزلية ما وراءها عذاب وثواب فعلى من يا ترى الموت قد كتب ؟!

فبلاغته تتجلى في المقدمه التي تتضمن الاستفهام الانكارى وتذكرنا بالموت اكثر وفي التشبيهات المحكمة الملموسة . فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق الا عن ميراث الحكمة .

وهذا هو أثر الاسلام في الخطب وجعلها دفاعا عن العقيدة ، وحثا للجهاد ، ووعظا للعامة وسننا للشرائع والاحكام ، وتنظيماً حياة الناس في جميع المجالات . وقد قوى هذا الفن واتسع نطاقه وعليه اعتمادهم في كل مهم جليل ، واليه كان مفزعهم عند كل أمر خطير .

---

(١) روائع الأدب / د . محمد نبيه حجاب ص ١٥٨ عن صبح الاعشى جـ١ / ٢١٣

الفصل الثانـــي

بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم

ولـد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ثم نشأ وتقلب في افصح القبائل ، فكانت ولادته في بني هاشم واخواله من بني زهره ، ورضع في بني سعد ، ونشأ في قريش التي سادت لهجتها على جميع اللهجات العدنانية (١) ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه لذلك جمع صفات الكمال في الكلام حتى قال صلى الله عليه وسلم (أنا افصح العرب بيد انى من قريش) هذا وان كلامه عليه الصلاة والسلام جمع فيه الفصاحة والبلاغة حتى قال له على بن ابي طالب حين سمعه يخاطب وفد بني نهد يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره ! فقال صلى الله عليه وسلم " ادبني ربي فأحسن تأديبي " (٢) فكلامه صلى الله عليه وسلم كما يقول صاحب اعجاز القرآن كالشجرة المورقة في روائها ونضرتها حتى تتسق له اسباب من هذه الأوضاع البيانية وتستقل له طريقة عقدها واخراجها فيبلغ

---

(١) قال معاوية لجلسائه : أى الناس افصح ؟ فقال رجل من السماط يا أمير المؤمنين : قوم قد ارتفعوا عن رتة العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن كشكشة تغلب ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير ، قال من هم ؟ قال قومك يا امير المؤمنين . قال صدقت فمن أنت ؟ قال : من جرهم — من كتاب الرافعي

(٢) اعجاز القرآن للرافعي / ٣٥٠
نفس المرجع ٣٦٢

أن يكون مثمرا ، والثمر بعد متفاوت في اشجار البلاغة ، نضجا وماء وحلاوة وكثرة ، وما أثمرت من ذلك بلاغة غريبة ما أثمرته بلاغة السماء في القرآن الكريم ثم بلاغة الأرض في كلامه صلى الله عليه وسلم لذلك جمع في كلامه الخلوص والقصد والاستيفاء .

وحسبنا من بلاغته صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم التي خص بها منها قوله (ان من البيان لسحرا) و(الان حمى الوطيس)(١) :

الوطيس هو التنور مكان الوقود ومجتمع النار

وهي كناية عن اشتعال نار الحرب ولكن عبارته صلى الله عليه وسلم كما يقول الرافعي نار مشبوبة من البلاغة ، وكأنما تمثل لك دماء ناريه أو نارا دمويه .

وقوله لأنجشه وكان يسير بالنساء في هوادجهن وهو يحدو بالابل وينشد القريض والرجز فتنشط وتجد وتنبعث في سيرها فتهتز الهوادج وتضطرب النساء فيها اضطرابا شديدا فقال عليه السلام رويدك انجشه رفقا بالقوارير (٢)

القوارير : جمع زجاجة . وظاهر المعنى ان النبي صلى الله عليه وسلم شبه النساء في صفائهن ورقتهن بالزجاجات خشية عليه من الخدش والكسر فيجب صيانتهن والحفاظ عليهن وقوله " خير المال عين ساهرة لعين نائمة " .

ويقصد بذلك الحث على الصدقة الجارية . والعين الساهرة هي عين الماء ـ البئر ـ التى ينتفع بها السياره ليلا نهارا وصاحبها

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي / ٣٦٥

(٢) نفس المصدر / ٣٧٦ والمجازات النبوية للشريف الرضى .

نائم وحسناته جارية ٠

وقوله ـ " المرء مع من أحب لا يوردن مجرب على مصح " (١)

وهدنة على دخن (٢)

ففيها تصوير بياني رائع ، اى ان الهدنة والصلح اللذين تما مبنيان على فساد كالطعام اذا اصابه دخان حين طبخه فأفسد طعمه فلا يجد آكله الا رائحة ذلك الدخان ٠

فهذا تصوير معنى الفساد التي تنطوى عليه القلوب ذات النية السوداء وقد اظهره صلى الله عليه وسلم في تصوير الكلام لفظة الدخن ٠

وقوله " بعثت في نفس الساعة " (٣)

يريد بقوله صلى الله عليه وسلم بعثت والساعة قريبة منه ، فوصفه لقرب الساعة بلفظ النفس ،كناية على قرب الشيء لان المرء يحس بأنفاس من كان بازائه ، وشديد القرب منه وهي كأنها من كل انسان في آخر انفاسه ، وان الساعة آتية ، فلينظر الانسان ما يقدم لغد لأن بعضهم حين يرونها يظنون انهم لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها ٠

فهذه الجمل لو اجتمعت العرب قاطبة على ان يكون لها مثل هذا التصوير البياني لما كان ، فاللفظة الواحدة جملة ، والجملة عجيبة التركيب ، رائعة التأليف ٠

ومن أمثلة بلاغته التي يتضح فيها التركيب اللغوى المجيب وتوجد فيه اللمحة التي تغنى عن اوسع المعاني واشمل الدلالات ويكون

---

(١) البيان والتبيين ج٢ / ص٢٠

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى ١٦٩

(٣) نفس المصدر ص٣٨

لوقعها اثر كبير مثل هذا يظهر في حديث الحديبية حين جاء ، بديل بن ورقاء يتهدده و يحذره فقال له : " اني تركت كعب بن لؤى بن عامر ابن لؤى ، معهم العوذ المطافيل (١) وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاءوا ماددناهم مدة و يدعوا ما بيني و بين الناس فان اظهر عليهم وأحبوا ان يدخلوا فيما دخلوا فيه الناس ... والا كانوا قد جموّ ، وأبوا فوالذى نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي (١) هذه ولينفذن الله أمره " .

علينا ان نتأمل هذه العبارة من قوله صلى الله عليه وسلم حتى تنفرد سالفتي يشع منها نور التوكل على الله الذى هو اساس محمد الصادق وكفى بالله وكيلا وهو لا يهاب ولا يخاف كثرة العدد والعدة لأن المعين هو الله وما النصر الا من عند الله وقد قال تعالى ﴿ كتب الله لا غلبن انا ورسلي ان الله قوى عزيز ﴾ (٢) وأن العزيمة الصادقة لا يثنيها تهديد ولا وعيد وان هذه الكلمة اغنت في جواب القوم ما لا تغنيه الرسائل الطوال حتى لتقطع الشهادة قطعا بما في نية صاحب الجواب من عزم امره و وثاقة عقده فكأنما هي صورة واضحة لما استقر في نفسه صلى الله عليه وسلم في كل ما عسى ان يرجعه جواب ، وما عسى ان يتهيأ له في باب الحزم وانها لكلمة بمعركة . (٣)

---

(١) يريده النساء والاطفال : والمطافيل : جمع مطفل وهي ذات الطفل وغرضه انهم جاءوا بحميتهم . (١) السيرة لابن هشام جـ ٣/٣٢٦

(٢) سورة المجادلة الاية / ٢٠

(٣) اعجاز القرآن / ٣٧١

ومن بلاغته صلى الله عليه وسلم خطابته بعد حنين ، ولما انتصر النبي في معركة حنين وهزم قبيلتي هوازن وثقيف ، وزع الغنائم والفيء على قريش ومن دخل في الاسلام حديثا ولم يخص الأنصار بشيء ، فتألم الانصار في انفسهم وكثرت منهم القالة وقال بعضهم : لقي رسول الله قومه فخصهم بالغنائم ، فدخل على النبي زعيم الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه فبلغه بموجدة الانصار وألمهم ، فأمر صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا في مكان واحد وخطب فيهم هذه الخطبة :

" يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتني عنكم وموجدة (١) وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة (٢) فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى لله ولرسوله المن والفضل .

فقال : ألا تجيبونني يا معشر الانصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ ؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك (٣) . أوجدتم في انفسكم يا معشر الانصار في لعاعة (٤) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ افلا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم

---

(١) موجدة : غضب

(٢) عالة : فقراء

(٣) آسيناك : أعطيناك

(٤) لعاعة : نعيم

الأنصار وأبناء الانصار وأبناء ابناء الانصار " فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا .(٤)

ان خطبته صلى الله عليه وسلم ذات موضوع واحد وقد جمعت العتاب والسؤال والجواب والاقناع وهى من التصنع والتكلف براء ، موجهة الى العواطف الدينية والنفوس المؤمنة لأنه خبير بها وباهوائها .

نعم لقد بدأ صلى الله عليه وسلم الخطابة باسلوب الاستفهام الانكارى البليغ الذى احدث بينه وبين الانصار تجاوبا روحيا وفكريا حتى قالوا بعد مقدمة موجزة " بلى يا رسول الله ".

وأنه صلى الله عليه وسلم اختص باسلوب منفرد في اللغة فهو مسدد اللفظ محكم كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها فيحدث القول في النفوس سحرا عجيبا ، فحين ما خاطب الانصار بعد معرفته بمدى ألمهم من هذا التوزيع قائلا أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا بمن ؟ برسول الله فنصيبكم من الغنيمة عظيم بهذه العبارة التي ليست كلاما من الكلام ولكنها سر من أسرار النفس كشفت الغمة عن نفوس الأنصار وبينت لهم كسبهم حين خص رسول الله نفسه لهم وتمنى ان يكون منهم ، وتبدلت حالتهم من غضب الى رضاء بتأثير القول الذى ترجم عن نفسية القائل ، ونزل الكلام منزلة الدواء واحداث رد الفعل وهو البكاء من فرط الرضا فهذا الهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل واسى ما جادت به الخواطر ﴿ انه قول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾

---

(١) الخطابة في عصر صدر الاسلام جـ ١ ص٢١٣ ، ٢ ابن هشام جـ ٤/١٤١

ومن خطبه صلى الله عليه وسلم في الوعظ أولى خطبه في المدينة :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

" أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن احدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ، ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته . (١)

التعليق :

ان السنة تشرح القرآن وتبين أحكامه وخطبته صلى الله عليه وسلم فيها معنى قوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ﴾ . (٢)

فهو صلى الله عليه وسلم يحث على الصدقة لأنها تطفىء غضب الرب ولما لها من آثار عظيمة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ا ص ٣٠٠ ، جمهرة خطب العرب ج ١ ص ١٤٨

(٢) سورة المزمل الاية ٢٠

فبلاغته صلى الله عليه وسلم تتجلى في اللفظ الذى يتخيله السامع صورة حقيقية ماثلة امامه فالعرض رهيب ، والموت هو الذى يصعق الناس والاخذ فجأة ، والحساب شديد وسعير جهنم * ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب * ، فتموج النفس وتضطرب وكأن زفيرها بين اذنيه ولسان حاله يقول *يا ليتنى كنت ترابا * ، وعندما تصل النفس ذروتها من الانفعال يحيد بها الرسول صلى الله عليه وسلم الى طمأنينتها ويقول : اتقوا هول هذا المشهد ولو بشق تمرة .

فما أيسر المطلوب لان الحسنة تتضاعف عند الله الى سبعمائة ضعف فما اكبر العطاء .

هذه هي البلاغة التي لا يحدها تفكير ، فهو الواضع يده على قلب اللغة فلم ينطق الا عن ميراث الحكمة ولم يتكلم الا بكلام حف بالعصمة وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق (١) وهو صلى الله عليه وسلم بنور الاسلام والرسالة فتق معاني الخطابة الدينية التي لم يعرفها من قبل احد ، فهو الذى جعلها مادة للخطباء بعده ، وأنه في ذلك آية من آيات الله .

الفصل الثالث

بلاغة ابى بكر رضى الله عنه

كان ابو بكر في ذروة الفصاحة والبلاغة لان بيان القرآن وبيان رسول الله بمواعظه وتشريعاته تسرب الى نفسه وأخذ بمجامع قلبه ، وكان غزير العلم والرواية ، بليغا متذوقا فما كان يتكلم إلا بفصيح القول بوضح الدلالة عما في نفسه وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ اذ قد يظن أن النفي يراد به الدعاء فقال له لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل لا ، وعافاك الله.(١)

وهذه خطبته عندما بويع بالخلافة حمد الله واثنى عليه ، ثم قال :

" أيها الناس : انى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينوني وان رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا أن اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم.(٢)

التعليق :

ان هذه الخطبة الموجزة تضع أعظم أسس العلاقة بين الحاكم والرعية

---

(١) العصر الاسلامي د. شوقي ضيف ص

(٢) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ١٨٠ ، عيون الأخبار ٢ ٢٣٤/٢

فهو رضى الله عنه يقول لم آخذ الخلافة للتشريف .. ولكنني حملت فقبلت ولست بخيركم كلنا سواسية ، وأن الصحابة بايعوه طائعين مختارين والنبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تقدموا على أبى بكر أحداً فانه أفضلكم في الدنيا والآخرة . (١)

وخطبته رسمت منهاجه وسياسته معهم ، وبينت اعتقاده الذى يبعد طبيعة الاستبداد والطغيان عن نفسه ، ويفتح باب تقبل النقد والمشورة " ان رأيتمونى على حق فأعينوني وان رأيتمونى على باطل فسددوني " .

ان لمسوا فيه انه سائر على طريق صاحبه يعينوه بالعمل والاخلاص والجهاد وان وجدوا اختلافا فالنصيحة واجبة عليهم .

أما كلامه عن مقياس الضعف والقوة ، فأروع ما يتمخض عنه الضمير الحي المنصف الذى يظهر فيه انه لا يخشى قوة الأقوياء عادل حريص على المصلحة العامة ، قادر على التنفيذ وهو منتهي الشجاعة عنده ، ولا ننسى تأثره بآداب القرآن وتعاليمه فأبو بكر الذى لا يضعف معه الضعيف دون ما يجب له ، ولا يقوى معه القوى فوق ما يجب له ، ووازعه الديني جعله هو الحاكم والمحكوم ، فهل جاءت أنظمة دنيوية بمعشار هذا النظام السماوى الكبير .

وقوله " ان اقوى الناس عنده المظلوم حتى يعود له حقه وان اضعف الناس عنده القوى حتى يعود عن باطله وبذلك يعودان في منزلة واحدة من المساواة .

وقال على رضى الله عنه في رثائه : " كنت لما قال رسول الله

---

(١) الخطابة في عصر صدر الاسلام ج ١ ص ٢٣٢

صلى الله عليه وسلم ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا في الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد مطمع ، ولا لاحد عندك هوادة فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له فلا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك .(١)

وله خطبة تشبه الى حد كبير خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعنى وان كان هناك اختلاف في التعبير والتأثر فحين جاءه مال من البحرين فرقه في الناس بالسوية فغضب الأنصار وقالوا له : فضلنا فرقى المنبر ، فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

لقد صدقتم فان اردتم أن افضلكم صار ما عملتوه للدنيا وان صبرتم كان ذلك لله عز وجل .

يا معشر الأنصار . ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في اموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا قلتم وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وان طال الأمد فنحن وأنتم كما قال الطفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلفت
بنا نعلنا في المواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ، ولو أن أمنا
تلاقي الذى يلقون منا لملت
هم اسكنونا في ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأظلت (٢)

---

(١) الخطابة في عصر صدر الاسلام ج١ / ٢٣٢ وصبح الأعشى ١٠٨/١٣

فان الخطابة في صدر الاسلام اصبح لها قوة التأثير في النصح والارشاد و يزيد من عمق الأثر صدق ايمان القائل - لانه ما خرج من القلب خاطب القلب - وموسيقى كل كلمة ، ومعناها ، وايراد الشعر والتمثيل به فكأنما هذا الشعر صنع لهذه الواقعة وفصّل عليها ثم المقابلة بين العمل لله ، والعمل للدنيا كل هذا جعل الأنصار يرجعون الى رشدهم .

من وصايا ابي بكر رضي الله عنه لعمر رحمه الله حين استخلفه عند موته :

(١)
انى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله . انّ لك عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلا ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم في الدنيا ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفا .
ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، والتجاوز عن سيئاتهم ، فاذا ذكرتهم قلت انى اخاف ألا اكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوا أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ، فاذا ذكرتهم قلت : انى لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر اية

---

(١) البيان والتبيين ج٢/ص ٤٥

الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راهبا ، ولا يتمنى على الله الا الحق ، ولا يلقى بيده الى التهلكة . فاذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب اليك من الموت ، وهو آتيك ، وان ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب ابغض اليك من الموت ولست بمعجز الله. (١)

---

(١) انظر الوصية في كامل ابن الاثير عند ذكر استخلاف عمر .

الفصل الرابع

بلاغة عمر رضي الله عنه

كان رضي الله عنه بليغا جيد النقد لمأثور الكلام ، يحب الشعر ويرويه وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسدادا اذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة حتى قالوا انه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء (١)

وهذه خطبته حين ولي الخلافة ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

" يا أيها الناس انى داع فأمنوا ، اللهم انى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق وابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسخنى في نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعه ، واجعلنى ابتغى بذلك وجهك والدار الاخرة ، اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فالهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين ، اللهم انى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التي لا تكون الا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك والمحاسبة لنفسى ، واصلاح

---

(١) العصر الاسلامى د. شوقي ضيف ص ١٢٤

الساعات ، والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت انك على كل شيء قدير".(١)

الشرح والتعليق :

تعد هذه الخطبة اولى خطبه رضى الله عنه بعد توليه الخلافة ، ونحن نرى انه جعلها دعوات لله سبحانه وتعالى وطلب من المصلين أن يعينوه بالتأمين وخص نفسه بالدعاء لان فلسفة عمر قائمة على أن في صلاح الراعي صلاح الرعية وهذه من تمام رجاحة العقل الذى وطىء الأمر بسعة حلمه وشدة عزمه وهو على ذلك كان نعم الكالىء لرعيته ، ويدعو رضى الله عنه ربّه ان يرزقه الرفق بأهل الطاعة والغلظة على أهل المعصية والنفاق من غير اسراف ، هذه السياسة جعلت الناس مسالمين مهادنين في عهده يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم .

ويدعو الله أن يهبه السخاء في بذل المعروف ابتغاء وجهه وهى نصيحة غير مباشرة للمسلمين وتذكرة لهم .

أما قوله ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين فيه معنى قوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(٢)

---

(١) العقد الفريد جـ ٢/١٣٣

(٢) سورة الحجرات آية ٢٨

ثم ان الانسان كثير النسيان فيسأل الخليفه ربه ان يلهمه ذكر الموت لأنه أعظم دافع للخير ، ويجعل الانسان يقظا يحاسب نفسه قبل ان يحاسب ولأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول " اكثروا من ذكر هازم اللذات " .

ويطلب الخليفة رضى الله عنه ان يرزقه النشاط والقوة والتوفيق في العمل مقرونا بالنية الحسنة .

وهكذا تتوالى الدعوات التي فيها صلاح الراعي ، ويختتم خطبته بطلب الدعاء من الله ان يمنحه التدبر والتفكير في كتاب الله لانه يهدى للتى هى أقوم .

بلاغته :

الخطبة تدور في موضوع واحد وهو بيان سياسة عمر رضى الله عنه في صورة دعوات وهو لم يطلب بها مصلحة دنيوية لنفسه وهذا اسلوب جديد لم يكن عند ابي بكر وكلمات الخطبة والفاظها سهلة وافية بالغرض الذى يريده ، تترجم عن الطبيعة العمرية في أدق معانيها وتكشف عن شخصيته .

ولقد كان عمر اذا خطب لا يتصعد ته كلام فأتى باسلوب بيانى بليغ فيه بعض الكنايات التي تظهر في قوله " خفض الجناح " كناية عن التواضع ومقتبس من قوله تعالى ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾(١) ولين الجانب يقصد بها الرحمة ، واخيرا سياسته الحكيمة .

---

(١) الاسراء اية / ٢٤

التي تعتمد على قوة النفس والشخصية جعلته يقول (اللهم اني غليظ فلينى لاهل طاعتك وارزقنى الغلظة والشدة على اعدائك واهل المعاصى والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم . لان الآداب تحتم على الفرد ان يكون ابدا مع الحق لا مع الحالة التى تسمى حقا في لسان من تنفعه وباطلا مع لسان من تضره .

فعدل عمر مضرب مثل الذى جعله يساوى بين ابنه وسائر الناس في الحدود ، وهو العدل الذى جعله على ان يأخذ للمصرى من ابن عمرو بن العاص كان قد ضربه وهو يقول أنا ابن الاكرمين فقصه على ملأ من الناس واعطاه الدّره وهو يقول أضرب ابن الاكرمين فما زال يضربه حتى أوجعه ثم قال له : اجلها على صلعة عمرو لعلمه ان ابنه ما فعلها ذلك الا اعتمادا على سطوة أبيه وعلى تغاضيه ففزع عمرو واعفاه صاحب الحق وعمر يقول " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا .

وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه " لله در ابن حنتمة أى امرئ كان " .

والسيدة عائشة تقول " من رأى عمر/أنه خلق غنى للاسلام ، كان والله احوذيا نسيج وحده قد أعد للأمور اقرانها " .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لم أر عبقريا يفرى فريه " .

من وصايا عمر رضي الله عنه :

كان عمر رضي الله عنه حين يعقد اللواء يقول : بسم الله وبالله وعلى عون الله : امضو بتأييد الله ، وما النصر الا من عند الله ولزوم الحق والصبر . فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات .(١)

وأوصى عمر الخليفة من بعده فقال :(٢)

" أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الاولين خيرا ، ان تعرف لهم سابقتهم . وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم . وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم ردء العدو ، وجباة الاموال والفيء لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب ومادة الاسلام : أن تأخذ من حواشي اموال اغنيائهم(٣) فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة خيرا : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم اذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته ، ان يطلع منك على ريبة وأوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك

---

(١) العقد الفريد / ج١ / ٩١

(٢) البيان والتبيين ج ٢/ ص٤٦

(٣) حواشي : صغار الابل كابن المخاض وابن اللبون

بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم (١) ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فان ذلك — باذن الله — سلامة لقلبك وحط لوزرك وخير في عاقبة أمرك حتى تفضي من ذلك الى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك وآمرك أن تشتد في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم". (٢)

(١) ثغورهم : جمع ثغر وهو الفرجة والمراد بها الخلة والحاجة .

(٢) البيان والتبيين جـ ٢ / ٢٢

الفصل الخامس

بلاغة عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان عثمان رضي الله عنه شديد الحياء ، فقد قال عنه الرسول للسيدة عائشة : ألا استحي ممن تستحي منه ملائكة الرحمن (١) ، فهذا الحياء البالغ قد لا يعين على الخطابة ولكنه لا يعوق عثمان رضي الله عنه عن البلاغة فكان يخطب احيانا فيملأ النفس بمواعظه ، وعثمان يصل في بلاغته الى مستوى صاحبيه حينما ينفعل و تستثيره الاحداث .

خطبته حين تولى الخلافة :

أما بعد ، فاني قد حملت وقد قبلت ، الا واني متبع ، ولست بمبتدع ، ألا وأن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا :

اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم

وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا على ملأ

والكف عنكم الا فيما استوجبتم

الا وان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ومال اليها الكثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة الا من تركها " (٢)

---

(١) البداية والنهاية ١٨٣/٧

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٥ : ١٤٩ ، الخطب في عصر صدر الاسلام جـ١ / ٣٠٧

التطبيـــق :

ان عثمان بن عفان رضي الله عنه هو القارئ لكتاب الله، المديم النظر فيه فتأثر بخلق القرآن وأدبه ، وانه في سياسته متبع غير مبتدع ، وهو يحذو في سياسته حذو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه الصديق والفاروق - وان كان خالفهما حين عزل الولاة والعمال من عهد عمر وولى غيرهم من ذوي قرابته - واذا عرض عليه أمر ولم يجده عند صاحبيه يلتزم فيه خير الطرق ويسن له سنة حسنة تتفق مع القرآن والحديث ، وهو متسامح مع الرعية الا اذا صدر منهم ما يوجب المؤاخذة وسياسته سياسة سلم وتعاون مع الرعية ، لا كسياسة أبي بكر الذي قال ألا وان لي شيطانا يعتريني فاذا غضبت فاجتنبوني .

وقال عمر رضي الله عنه " انما مثل العرب مثل شيطان أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده وأما انا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق (١) .

ولم يكن عثمان متمرسا بالسياسة فهو متفرغ للعبادة والتقوى والقيام والسهر على القرآن وهو تقي عابد تعوزه الشخصية القوية مما جعل الثوار يثورون عليه وعلى سياسته ويقتلونه .

وخطب خطبة اختلف تماما عن سابقتها فقد غلب على لينه وسماحته فانطلقت طبيعته البشرية من عقالها وقال :

" ان لكل شيء آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، وان افة

---

(١) الطبري ٤/٥٤

هذه الأمة عيابون طعانون ، يظهرون لكم ما تحبون ، و يسدون لكم ما تكرهون طغام (١) مثل النعام يتبعون أول ناعق ، أحب موارده الها البيهم النازح (٢) لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علىّ ، ولكنه وقمكم (٣) ، وقمعكم (٤) وزجركم زجر النعامة المخزمة (٥) فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم علىّ أما والله اني لأقرب ناصرا ، وأعز نفرا ، وأقمن — ان قلت هلمّ — أن تجاب دعوتى من عمر .... وأخرجتم لى خلقا لم أكن أحسنه ومنطقا لم أنطق به .

ألا فما تفقدون من حقكم ؟ فوالله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضل فضل من مالى ، فمالا اضع في الفضل ما أريد اذن فلم كنت اماما . (٦)

البلاغة والنقد :

في ثورة من ثورات الغضب أخذ عثمان رضى الله عنه يقول ان كل شىء في الوجود له آفة تصيبه ، وعلة يحتل بها ، فآفة الأمم وعاهتها هؤلاء العيابون لنا ، القادحون فينا ، أليسوا هم أوغاد الناس ؟ وهم الغوغاء والسفلة الأدنياء الذين يميلون مع

---

(١) الطغام : اوغاد الناس الواحد والجمع فية سواء واحده طغامه كسحابة
(٢) المورد النازح : الذى نزح ماؤه فقل وغاض
(٣) وقمكم : قهركم وأذلكم
(٤) وقمعكم : أخضعكم ، وأصله الضرب بالقمعة وهي العصا
(٥) المخزمة : التى من أنفها خزامة تقاد بها
(٦) صبح الأعشى ج ١ / ٢١٤

كـل رأى ويتبعون أول ناعق من غير تؤدة ولا تفكير ، وتكون النتيجة اضطراب الأمور وسوء المنقلب والمصير .

ويبدو انه في سورة نفسه كان مغيظا فخرج عن طبعه ، وصرح بما لم يكن خليقا به أن يصرح معتقدا ما يقول ، ومقتنعا به ، وصارفا جل اهتمامه بالموضوع ، فبين أن في اعماله ما فيه خير للأمة فحققهم تصلهم كاملة ، ورزقهم يأتيهم من كل مكان أفان خص أحدا بشيء من
هادفة - تشتعل الفتنة
الفضل الذى بقى في بيت مال المسلمين ، لغاية/في نفسه/ ، فجلال اللفظ وجزالته ، والأسلوب المزدوج ورصانته جعل المعنى واضحا لا ابهام فيه ولا التواء ، وناهيك عن التشبيه المحكم " طغام مثل النعام " والتمثيل المصيب الذى يتطلبه المقام .

ولكن شدة غضبه جعلته لم ينصف عمر ، وقال ان القوم خضعوا لعمر عن طواعية وانقادوا له — والسر في الانقياد انما أساسه السياسة الحكيمة التي انتهجها عمر التي تعتمد على قوة الشخصية لا على قوة السيف يقول صاحب روائع الادب " على أن اخذهم حقوقهم واستيفاءهم لها لا يبرر للحاكم ان يطلق يده فيما بقى من مال في بيت المال ، اذ المال مال الدولة ، وفرق بين خزانتها وخزانته ... ترى هل سلم له هذا القول (ان عمر يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله وأنا أعطى أهلى وقرابتى ابتغاء وجه الله) ..

حقا ان لكل رأيه وعقيدته ، ولكل امرئ ما نوى غير النفوس البشرية لا تعلم ما تكنه الأنفس أو تخفيه الصدور.(١)

---

(١) روائع الأدب د. محمد نبيه حجاب : ١٧٢

فاذن الختام الذى كان ينبغى أن يكون فصل الخطاب وحجة عليهم لم يكن كذلك وانما اشار الى نزعة فردية وهي سبب اثارتهم ولم يكن لإمام أن يفعل ما يشاء .

ويقول أيضا ان الخطابة في عصره رضى الله عنه اخذت طابع الجدل والنقاش الذى يمثل الحال القائمة وتنذر بالثورات القادمة .

الفصل السادس

بلاغة علي رضى الله عنه

لا شك ان الامام عليا كان مقدما في الكلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المتكلمين جميعا أقاموا مذاهبهم على أساسه وقد سئل عبد الحميد الكاتب : ما الذى خرجك في البلاغة ؟ فقال حفظ كلام الأصلع : يعنى به عليا . (١)

فهو مثل أعلى في الفصاحة والبلاغة ، وهو أول من عالج الفنون الادبية معالجة فنية فخرج عن سنة الا بلاغ ومحض الأداء الى صناعة التعبير وفن الاداء الذى يجمع بين جزالة البداوة ونصاعة القرآن وزخرف الحضارة فكانت الفاظه قوية توضح شخصية الامام من ثنايا السطور فتقرع الأذن باسلوب مطرز بوشى الخيال .

وله من الخطب الطوال المشهورة : الزهراء ، والغراء ، والبيضاء وغيرهن مما قد حمل عنه ونقل .

خطبة الامام على بعد مقتل عامله على " الأنبار " :

وجه معاوية سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار ، وقتلوا عامل على عليها وهو حسان بن حسان البكرى ، ودخل الرعاع من الجنود الدور ، فنهبوا حلى النساء المسلمات والمعاهدات ، ثم عادت

---

(١) نهج البلاغة جـ١ /٥١٤

الكتيبة الغازية دون أن تلقى أى مقاومة تذكر .

فخرج غاضبا حتى أتى النخيلة فقام فيهم خطيبا وكانت هذه الخطبة من أشد خطب الامام على رضى الله عنه لهجة وتأثرا وجرسا فحمد الله وأثنى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

(أما بعد : فان الجهاد باب من ابواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته (١) الوثيقة . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، وديث بالصغار (٢) ... ألا وانى قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شنت (٣) عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان ... هذا أخو غامد (٤) قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالحها (٥) والذى نفسي بيده

---

(١) جنته : وقايته .

(٢) ديث الصغار : ذلل بالمهانة

(٣) شن الغارة : صبها من كل وجه

(٤) أخو غامد : يريد قائد الحملة على الأنبار من قبل معاوية وهو سفيان بن عوف الغامدى

(٥) المسالح : جمع مسلحة وهى الثغر موضع المخافة

لقد بلغني أنه كان يدخل على المرأة المسلمة ، والاخرى المعاهدة ، فينزع حجلها [١] وقلبها [٢] وقلائدها ورعثها [٣] ما تمنع منه الا بالاسترجاع [٤] والاسترحام ثم انصرفوا وافرين [٥] ما نال رجلا منهم كلم [٦] ولا اريق لهم دم . فلو ان امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندي فيه ملوما ، بل كان به عندي جديرا .

يا عجبا كل العجب ! عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان من تضافر [٧] هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم حتى اصبحتم غرضا [٨] ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون اذا قلت لكم : اغزوهم في الشتاء قلتم : هذا اوان قر [٩] وصر ، وان قلت لكم : اغزوهم في الصيف قلتم : هذه حمارة القيظ [١٠] انظرنا ينصرم الحر عنا . فاذا كنتم من الحر والبرد تفرون فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه

---

(١) الحجل : الخلخال وسمي القيد حجلا لأنه يكون مكان الخلخال

(٢) القلب : (بضم القاف) سوار المرأة

(٣) رعثها : قرطها

(٤) الاسترجاع : قول انا لله وانا اليه راجعون .

(٥) وافرين : تامين

(٦) كلم : الجرح والقطع

(٧) تضافر : تعاون وتناصر

(٨) غرضا : هدفا

(٩) قر : البرد ، والصر : شدة البرد .

(١٠) حمارة القيظ : شدة الحر ..

الرجال ولا رجال ، ويا طغام (١) الأحلام ، وعقول ربات الحجال (٢) ... لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندما ، وأعقبت سدما (٣) قاتلكم الله ، والله لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظا حتى قالت قريش : ابن ابي طالب رجل شجاع ولكن لا رأى له في الحرب ..

لله درهم (٤) ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراسا (٥) فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت (٦) اليوم على الستين ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع . لا رأى لمن لا يطاع .. لا رأى لمن لا يطاع ..

فقام اليه رجل ومعه أخوه (٧) فقال :

(يا أمير المؤمنين ، أنا وأخى هذا كما قال تعالى ﴿ رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ﴾ فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهين اليه ولو

---

(١) طغام : أوغاد الناس ، ومن لا عقل له ولا معرفة عنده
(٢) الحجال : كناية عن النساء
(٣) سدما : الهم أو الهم مع الندم
(٤) درّهم : أى عجبهم وهو تعجب يراد به التهكم
(٥) مراسا : دراية أو قوة وجلدا
(٦) نيفت : زدت ، أو اشرفت
(٧) أخوه : الرجل واخوه يعرفان بابنى عفيف من الأنصار

حـال بيننا وبينـه جـمر الغضا (١) وشـوك القتاد (٢)) فدعـا لـهمـا بخير ، ثم قال : وأبن تقعان مما أريد . ثـم نزل .. (٣)

التحليل والنقـد :

تعتبر هذه الخطبـة عملا فنيا وعالما ادبيا متكاملا تـنطبـق عليها فنون الدراسـة قديما وحديثا .

كانت الخطبة قديما خمسـة اجزاء : (١) المقدمة (٢) العرض (٣) التدليل (٤) التـفنيد (٥) الخاتمـة . وحديثـا جعلوها : (١) مقدمـة (٢) وعـرض (٣) وخاتمـة .

المقدمـة :

بعد أن بدأ عـلى رضى الله عنه الخطبـة بحمد الله والصلاة والسـلام على نبيـه وهوما درج عـليه الخطباء منذ صدر الاسـلام ساق مقدمـة اذا امعنـا النظر اليها تصورنا المعانى التي تكـشف عن براعـة الاستهلال والتقديم لموضـوع الخطبـة بشيء يتصـل به وهذا دليل على تصرفـه فيالـلغـة التي تشكل ثقافتـه ، فهذه الدلالة اللغـويـة المثقلـة بالفكـر الاسـلامـى خاطـب قومـه باسلوب فـيه ترغـيب وترهيب اذ يقـول : (ان الجهاد باب من أبواب الجنـة فتحـه الله لخاصـة أوليائـه وهو لبا س التقـوى ودرع الله الحصينـة ...

---

(١) الغضا : شـجر ينبت في الرمل جمره يبقى طويلا.

(٢) القتـاد : شجـرصلب له شـوك كالا بر

(٣) البيان والتبيين ج ٢ / ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ، الكامل للمبرد جا / ١٣ ـ ١٤

وبين المصير المظلم الذى ينتظر كل أمة تترك الجهاد كراهة له اذ يقول :

فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذى وشمله البلاء الى غير ذلك مما لا تحمد عقباه و يأباه كل حر كريم .

وهذه المقدمة كما يقول صاحب روائع الأدب[1] اذا قيست بمقاييس النقد الحديث نجدها قد استوفت عناصر النجاح فهي وثيقة الصلة بموضوع الخطبة ، قضاياها حقائق لا شك فيها ، مناسبة في طولها للموضوع الذى بين ايدينا ، لم تقصر عن غاياته ولم تبسط الى حد الاملال .

وأما العرض :

ونعني به موضوع الخطبة وهو بيت القصيد فقد بين على كرم الله وجهه لأصحابه ان التخاذل وعدم الاقدام والتواكل وعدم السماع لنصيحة كانت عواقبه المذلة والهوان وذكر أهل الكوفة بما أمرهم به من صائب الرأى حتى لا يفاجئوا بعد وان لم يحتاطوا له ، ولكنهم تكاسلوا وأعرضوا عنه حتى داهمهم العدو . ثم انتقل لشرح سبب هذه الخطبة وهو ذلك الحادث الأليم وبما كان من اغارة خيل معاوية على الأنبار ، والفظائع التي اقترفها من قتل العامل ، واعتدائهم على النساء ، ثم عودتهم سالمين دون ان يلقوا في سبيلهم أى مقاومة تذكر .

ثم يظهر الأسف والعجب لهذا الوضع المخجل الذى جعل اصحابه هدفا للغارات وذلك لسبب واحد هو التفاف عدوهم حول باطله ، وتفرقهم من حول حقهم ، ويفصح علىّ عن موقف أهل الكوفة ومعاذيرهم الكاذبة

---

(١) ص ١٧٦

وتقاعسهم عن الجهاد بانه اذا طلب منهم الخروج للجهاد شتاء تعللوا بشدة البرد وبشدة الحر صيفا ويقيم من ذلك دليلا منطقيا في قوله : اذ كنتم تفرون من القر والحر فأنتم والله من السيف أفرّ .

وفي هذه الخطبة يرفض الامام عليّ التهمة الموجهة وينفيها عن نفسه فقد ذكر رضي الله عنه ان قريشا قالت عنه : ان ابن أبي طالب رجل شجاع ،ولكن لا رأى له في الحرب ، فانبرى يفند هذه التهمة الباطلة ، ويدحض فرية الخصم ويكذب ادعاءاتهم بعبارة رصينة يعرض فيها قوة الاحتجاج بأساليب انشائية التي تتطلبها مواقف التأثير والانفعال كالتعجب والاستفهام الانكارى والقسم والتوكيد يقول :

لله درهم ، ومن ذا يكون أعلم بها منى ؟ فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين فليس من الانصاف ان يتهم بقلة الخبرة والتمرس .

الخاتمة :

لم تكن بالصورة الغالبة على ختام الخطب ، وانما كان ختام هذه الخطبة الحوار القصير الذى تم بين عليّ والرجل الذى ثارت حميته وتأثره بكلام الامام وأعلن استعداده هو وأخوه بقول موجز نابع عن عقيدة وايمان صادق .

بلاغته :

كان الامام على ممن برع في الاسلوبين : الايجاز والاطالة ، فسلم في الايجاز من التقصير ، وفي الاطالة من الاسهاب والتكثير ،

وتقدم الناس جميعا في ذلك ، كتقدمه في سائر فضائله .. (١)

فبلاغته في هذه الخطبة / في الصفات والمميزات وتقويم الأسلوب الخطابي على أساس الدراسات النقدية الحديثة .

(١) ـ فالأسلوب الخطابي يتسم ـ غالبا ـ بالاطناب ففي هذه الخطبة مواضع متعددة للاطناب وبسط القول لانه من عوامل التأثير ، يقول علي رضى الله عنه فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا .

(٢) ـ ان المتأمل لهذه الخطبة يرى أثر الثقافة القرآنية واللغوية .

(٣) ـ بداية الخطبة تتدرج من اللين الى العنف فهو حين يتحدث عن الجهاد كان هادئا نسبيا ثم اندفع ثائرا حين ذكر أن اعداءه انتهبوا الاموال ، وانتهكوا الحرمات حتى بلغ ذروة العنف فنعت / اصحابه بأشباه الرجال وحلوم الأطفال ، وهذه الخاصة في استعمال العنف نقلها عنه فيما بعد خطباء بني أمية وبالغوا فيها كالحجاج مثلا .

(٤) ـ الوضوح : وهو أساس الخطبة الناجحة والاقناع والاستمالة التي تجعل السامع يتابع الخطيب ويفهم عنه .

(٥) ـ الوحدة الموضوعية : ففي خطبته وحدة موضوعية ، موضوعها الجهاد ، وتخاذل قومه ، ونتيجة ذلك التخاذل هو الهجوم

---

(١) نقد النثر لقدامة / ١٠٣

المفاجيء وما الى ذلك من تسلسل موضوعي وكأنه حلقة متصلة الاجزاء كل جزء تكملة للسابق وبداية للاحق فالسياق المترابط والترتيب المحكم مهد الى النتيجة التي يريدها .

(٦) ـ اعتمد اسلوب الخطبة على اثارة الحماسة وايقاظ الشعور ، بالالفاظ الموحية ، وموسيقى ألفاظ الجمل التي يكثر فيها الازدواج والسجع ، فالألفاظ الغريبة التي تدل على سعة ثقافته ثم الترادف في الكلم .

وفي هذه الخطبة أمثلة من هذا في قوله : فينتزعون حجلها ، وقلبها ، وقلائدها ثم انصرفوا وافرين ما نال منهم كلم ولا أريق لهم دم .

ومثل يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال . فهذه العبارات الصارخة المدوية دوى الرعد تهز القلوب حين ينعتهم بعدم الرجولة فتهز قلوبهم الخائرة وتنشط نفوسهم الراكدة .

(٧) ـ ان قوام الخطب الناجحة الاقناع والاستمالة والخطيب احوج الى الاستمالة منه الى الاقناع لأن الجماعة أقدر على العمل من التفكير فهذه الخطبة حافلة بعناصر الاقناع ومقومات الاستمالة .

ومن بلاغته رضي الله عنه اسلوب الازدواج الذى يظهر في بعض خطبه وقد قال ابو هلال لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ، وقيل ولا تكاد تجد للبليغ كلاما يخلو من الازدواج .

خطبة الامام علي بعد التحكيم :

أما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة (١) أمري ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر (٢) فأبيتم علي اباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هوازن (٣) :

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد

الا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة بينة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لا يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين " استعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام " (٤)

والحق ان بلاغة الامام تعتمد على صور الخيال الرائعة ، والصور البيانية التي تؤثر في نفوس السامعين والتي يبلغ القول بها مبلغه وفي ذلك يقول جوستاف لوبون :

---

(١) الحكومة : التحكيم

(٢) هذا مثل : وقصير هذا كان مولى جذيمة بن الأبرش ، وكان قد نصح سيده الا يأمن للزباء ملكة تدمر ، وكانت قد دعته اليها ولكنه خالف مشورة قصير وذهب اليها فقتلته فقال قصير (ألا يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلا .

(٣) هو دريد بن الصمة

(٤) الطبري جـ ٦/٤٣

ان الجماعات تتأثر على الأخص بالصور ، وليست الصور ممكنة في كل وقت ولكن من السهل استحضارها في الذهن بالحذق في استعمال الألفاظ والجمل ، ومتى كان المستعمل بارعا كانت لها قوة السحر عند معتقديه في الزمن القديم فهي التي تشير في نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب ، وهي التي تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم .(١)

وقفة بلاغية :

ومن بلاغته ايضا التى تعتمد على الصور البيانية ومالها من أثر في نفس السامع وكأن الألفاظ صور تتراءى وبها يبلغ القول مبلغه قوله في خطبته لما علم أن النعمان بن بشير أغار من قبل معاوية على عين تمر يقول :

" ياأهل الكوفة : كلما سمعتم بمنسر(٢) من مناسر أهل الشام أظلكم ، انجحر(٣) كل امرئ منكم في بيته ، وأغلق بابه ، انجحار الضبّ في جحره ، والضبع في وجارها(٤) المغرور من غررتموه ، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند

---

(١) روح الاجتماع (تعريب فتحى زغلول) ص ١١٣

(٢) النسر : قطعة من الجيش تمر امام الجيش الكبير

(٣) انجحر : اى دخل حجره

(٤) الوجار : بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء[1] ، انا لله وانا اليه راجعون !
ماذا منيت به منكم ؟ عمي لا تبصرون ، وبكم لا تنطقون ، وصم لا
تستمعون ! انا لله وانا اليه راجعون ![2]

ويمكننا القول بأن علي رضي الله عنه جد قدير على أن يحشد جيشا من الكلمات الجزلة القوية التي تشبر في سماء الخيال صورا رائعة ، وله ذوق/ذواق في اختيار الألفاظ التي يفصح بناؤها عن مدلولها ، فيبرز حسنا بحسن ، ويضيف احسانا الى احسان .

---

(١) النجاء : السرعة

(٢) تاريخ الطبري جـ٦/٧٧

الفصل السابع

خصائص الخطابة في العصر الاسلامي

اذا تأملنا النصوص الخطابية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين نرى فرقا واضحا بينها وبين الخطابة الجاهلية فقد اصبحت اقوى نسيجا وأكثر تماسكا ولها وحدة في الموضوع مرتبط الاجزاء متسلسل الافكار ولم تعد حكما وامثالا منثورة من غير رابط .

وتتميز الخطابة في عصر صدر الاسلام بالخصائص الفنية الآتية :

(١) — اصبحت جميعها تفتتح بحمد الله والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أثر من آثار القرآن والاسلام في الخطباء .

(٢) — بدء الخطبة بعد التحميد بقولهم (أما بعد) وهو اتجاه جديد كان النبي صلى الله عليه وسلم اول من اتجه اليه .

(٣) — اصبحت الفاظ الخطابة الاسلامية اكثر رقة وعذوبة واحسن ملاءمة للمعنى .

(٤) — تأثرت الخطابة ببلاغة القرآن فظهر أثره واضحا وقل أن ترى خطبة لم توضح بآيات القرآن وان الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء ، تزيده نورا وتكسوه روعة وجلالا فالقرآن هو المدرسة العظمى التي تخرجت فيها الخطابة الاسلامية تقول الخنساء وهي تحرض اولادها على القتال :

يا بني ، أنتم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا اله غيره ، انكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت[١] حسبكم ولا غبرت[٢] نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية بقول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٣]

(٥) - كما اتسع نطاق الخطابة حين وجد الجدل والمناظرة ، ومحاولة الاقناع في الدين والسياسة والخصومة واتبع الخطباء سبل القرآن ، وحاكوا اساليبه في ايراد الحجج الخطابية ، وسوق القضايا المنطقية بقول عليّ رضى الله عنه في مناظرة له مع الخوارج (اللهم هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق وأدعت[٤] فهو في الاخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء قال علي : فما اخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم الله أتعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم الى كتاب الله ، قلت لكم اني أعلم بالقوم منكم ، انهم ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، انى صحبتهم وعرفتهم اطفالا ورجالا ،

---

(١) هجنت : خلطت ، أو قبحت

(٢) غبرت : اى دنست

(٣) خزانة الأدب : ١/٣٩٥

(٤) أدعت : المكان السهل الدهس الذى تغيب فيه الاقدام اى طريق عسر

فكانوا شرّ اطفال وشرّ رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم فانما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وادهانا ومكيدة ، فرددتم عليّ رأيي وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعصيتكم اياي (١)

تحول الخطابة الى المجال العام :

اصبحت الخطابة تعبر عن وجهة نظر الأمة لا القبيلة ، ومعول الهدم وأداة البناء في هذا المجتمع القديم المتجدد ، وترجمان الصراع الأدبي والعقلي والخلقي والوجداني وهي ترفع مشاعل الحق والخير والحرية والفضيلة وتطمس معالم الباطل والرذيلة .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٧

الباب الثاني

الخطابة في عصر بني أمية

تمهيـــــــد

نشـأة الأحـزاب السياسيـة :

حيـن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيـق الأعلـــى أخذ المسلمون ينظرون فيمن يخلفه ويقوم مقامه ، فظهـر عندئـذ خـلاف في أمـر الخـلافـة فكان اول خـلاف سياسـي بيـن المسلمين .

فبينمـا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفرغ من أمـره بعـد ، كان اجتماع السـقيفـة ، وكان لكل من المهاجريـن والانصـار وآل البيـت شـيعة ورأى .

فالانصار يريدون أن يـبايعوا سعد بن عبادة سـيد الخزرج ويقولون " نحـن أولى بالأمـر " .

والمهاجرون يقولون " لنا الأمر دونكم " . فمضى أبو بكـر وعـمر وأبو عبيدة حـتى جاءوا سـقيفـة بنى ساعده وسألوا الأنصـار رأيهم ، فقال الحباب بن المنذر : منا أميـر ومنكم أمـير ، فان عـمل المهاجرى في الانصارى شيئا ردّ عليـه ، وان عمل الانصارى في المهاجرى ردّ عليـه وان لم تفعلوا فانـا جذيلها المحكك وعـذيقها المرجـب (١) والله لنعيدنهـا جـذعـة ! فقال عـمر : فأردت أن أتكلـم ، وكـنت زورت في نفســى

---

(١) الجذيل المحكك : خـشبة تـنصب كالعمود للابل الجـربى لتحك بها جسمها اذا هاجها الداء وهذا مثل يراد به انه يستشفى برأيـه وعـقله العذيق المرجـب : العزق النخـلة ، الرجـبة : الدعامـة التـي تستـند اليها النخـلة الطويلة حـتى لا تتلاعب بها العواصف . وهـذا مثـل ايضـا كسابقـه .

كلاما فى نفسى ، فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر فما ترك كلمة كنت زورتها فى نفسى الا تكلم بها . (١)

واحتدم النزاع بين الطرفين ، وكل منهما يرى أنه أحق بالخلافة ودارت بينهما خطب كثيرة ، (٢) وفيها يظهر كل خطيب مناقب قومه ، واخيرا تكلم بشير بن سعد الانصارى (٣) بما يراه الحق وكان في قوله فصل الخطاب قال : (يا معشر الأنصار والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لانفسنا . فما ينبغى لنا ان نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا فان الله ولى المنّة علينا بذلك الا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله انازعهم هذا الأمر ابدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فانك أفضل المهاجرين * وثاني اثنين اذ هما بالغار * ، وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك (٢) ابسط يدك نبايعك .. فقام اليه فبايعوه .. (٤) وتم الأمر

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ : ١٠

(٢) راجع روائع الأدب / د . محمد نبيه حجاب ص ١٦٠ وما بعدها

(٣) هو النعمان بن بشير بن سعد اول مولود انصارى في الاسلام ، حضر بيعة العقبة ، وغزوة بدر ، وآخر من ولى الكوفة في عهد معاوية .

(٤) الطبرى جـ ٣ / ٢٠٧

لأبى بكر رضى الله عنه • ولم يتخلف عن البيعة الا على والزبير ونفر من بنى هاشم كانوا يرون ان آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالخلافة •

ومنذ ذلك الوقت ولدت الفكرة الأولى للتشيع ووجدت جماعة الشيعة وبقيت هذه الفكرة كامنة في نفوس اصحابها ينتظرون الفرصة لتظهر جلية على مسرح السياسة ، لان عهدى ابي بكر وعمر رضى الله عنهما كان مثالا للحكم الصحيح والعدالة الشاملة •

فما أن قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه وتولى علىّ الخلافة سنة ٣٥ هـ/ حتى تنسمت ريح الاحزاب ، وظهرت بوادر الانشقاق على المسلمين ، وانترقوا بعد معركة الجمل وصفين التي انتهت بالتحكيم فرقا ثلاثا

انصار معاوية : هم الأمويون الذين آل اليهم الحكم •

وشيعة على : الذين كانوا يرونه أحق بالخلافة حتى من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما •

الخوارج : الذين خرجوا على معاوية لأنه كما يرون اغتصب الخلافة من ذوى الحق الأصيل ، وخرجوا على علىّ لانه قبل التحكيم ولا حكم الا لله •

الفصل الأول

الشيعة

ان فكرة التشيع وجدت منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت على لسان جماعة رأوا ان عليا اولى وأحق الناس بالخلافة ، وانها ميراث أدبي ، ولوكان النبي عليه الصلاة والسلام يورث في ماله لكان اولى به قرابته ، ويروى البخارى عن ابن عباس أن عليا رضي الله عنه خرج من عند النبي في وجعه الذى توفي فيه ، فقال الناس يا أبا الحسان كيف اصبح رسول الله ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئا ، فأخذ بيده العباس رضي الله عنه وقال : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا وانى والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى من وجعه هذا ، وانى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الأمر فان كان فينا علمناه ، وان كان في غيرنا كلمناه ، فأوصى بنا فقال على رضي الله عنه : أما والله لئن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده والله لا أسألها (١)

وكان جمع من الصحابة يرى ان عليا أفضل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والأمويون يرون ذلك أيضا . فهذا ابو سفيان يقول عقب البيعة لأبي بكر :

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكمو ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر الا فيكم واليكمو ... وليس لها الا (ابو حسن على)

---

(١) فجر الاسلام / ا. احمد امين / ص ٢٦٦

وتطورت الفكرة عند شيعة علي وجعلوه اماما معصوما من الخطأ ، وأن عليا هو الذى عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصوص موضوعة على مقتضى مذهبهم (١)

ولم يكتف غلاة الشيعة بهذا القدر في على ، وبأنه أفضل الخلق بعد النبي ، وأنه معصوم من الخطأ ، بل أليهوه فمنهم من قال : " حل في عليّ جزء الهي فقد جاء قوم من اصحاب عبدالله بن سبأ (٢) فقالوا له : أنت هو ، فقال لهم : ومن هو قالوا : أنت الله فغضب عليّ وأمر بالنار فأوقدت وأمر مولاه قنبر أن يلقى هؤلاء الرجال في النار فجعلوا يقولون وهم يلقون الان صح عندنا أنه الله ،

وأنني أعجب من اعتقادهم هذا بألوهية على ، مع ان احدا لم يقل بألوهية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الفكرة تناقض العقيدة الاسلامية وهي وحدانية الله سبحانه وتعالى وتنزهه عما سواه .

وأشهر فرقهم : الامامية ، والزيدية

وتعاليمهم : التقية ، والرجعية ، والمهدية (٣)

---

(١) راجع نهج البلاغة ج ٤ ، وفجر الاسلام ص ٢٦٧ وما بعدها

(٢) عبدالله بن سبأ يهودى المذهب واضع مذهب الرجعة وهو رجعة الرسول صلى الله عليه وسلم

(٣) التقية : المداراة وكان كثير من الشيعة يكتمون تشيعهم لآل البيت ويعملون سرا .

الرجعة : يقولون اعتقادا برجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول عبدالله سبأ : اني لاعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد .

المهدية : الامام المنتظر ، فرقة تقول بانه جعفر الصادق ، واخرى تنتظر محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابي طالب ، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية تزعم انه حي ولم يمت .

ولهم نشاط سياسي ، الهدف منه استرداد الخلافة من الأمويين ولكن الأمويين قتلوهم شر قتلة ، واخذوهم بكل ظنة وتهمة حتى أن الرجل ليقال له زنديق اوكافر ، احب اليه ، من أن يقال له شيعة على .

وكان لهذا الاضطهاد أثره في اصطباغ ادبهم بالحزن العميق ، وخطابتهم سياسة مذهبية تعتمد على القرآن الكريم واحكام الاسلام وان كان فيها شيء من الشطط .

وبعد معركة صفين التي كانت فصل الخطاب وبعد مقتل عليّ رضي الله عنه ، وتولى معاوية الخلافة ، وتربع على عرشها . يقال أنه ذكر الزرقاء في مجلسه يوما ، وهي من شيعة على ، فقال لجلسائه : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين : فاستشارهم في أمرها فأشار البعض بقتلها ، فلم يستحسن الرأى . وقال أيحسن بمثلى أن يقتل امرأة .... ثم كتب الى عامله بالكوفة أن يوفدها معززة مكرمة ، فأرسل اليها عامله ، وأقرأها الكتاب . فقالت : ان أمير المؤمنين ان كان جعل الخيار لىّ لا اتيه ، وان كان حتمها فالطاعة أولى وحين قدمت الشام سألها معاوية ، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة ، قال كيف كنت في مسيرتك ؟ قالت ربيبة بيت أو طفلا ممهدا . قال : بذلك أمرناهم . أتدرين فيما بعثت اليك ؟ قالت : وأنى لى بعلم ما لم أعلم . قال ألست الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين — بصفين — فتحضين على القتال وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : (يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، ولن يعود ما ذهب والدهر

ذو غير[1] ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر) .

قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت : لا والله لا احفظه ولقد نسيته قال : فاني أحفظه لله أبوك حين تقولين :

" أيها الناس ارعوا وارجعوا ، انكم قد اصبحتم في فتنة غشتكم[2] جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة[3] فيا لها فتنة عمياء بكماء لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، ان المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد ، ألا من استرشدنا ارشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، أيها الناس ان الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبرا يا معشر المهاجرين والانصار على الغصص[4] فكأن قد اندملت[5] شعب الشتات والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف ؟ وأنّى ؟ ليقضي الله أمرا كان مفعولا . ألا وان خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، لهذا اليوم ما بعده والصبر خير في الأمور عواقبا . ايها[6] في الحرب ، قدما غير

---

(١) غير : جمع غرة أحداث

(٢) غشتكم : غطتكم

(٣) المحجة : جادة الطريق .

(٤) الغصص : جمع غصة وهو ما يعترض الحلق من طعام وغيره

(٥) اندملت : شفيت والتأمت

(٦) ايها : كلمة يراد بها المزيد

ناكصين (١) ولا متشاكسين . ثم قال لها : والله يا زرقاء ، لقد شركت عليا في كل دم سفكه ، قالت : أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير ، فسر جليسه قال : أو يسرك ذلك . قالت : نعم ، والله لقد سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل . فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته اعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين : آليت على نفسي ألا أسأل أميرا أعنت عليه ابدا . ومثلك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبة ، قال : صدقت وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساء . (٢)

التحليل والتعليق :

لقد رأينا أن النساء لهن دور كبير في معركة صفين ، ومنهن من عرض صدره للسيوف ، ونحره للحتوف ، وينطلق لسانها بالعبر ، فهذه الزرقاء بنت عدى ، وغيرها من الشيعيات واقفات في المعركة حاضات حاثات بالخطب التي تدوى في صدور الرجال دوى الرعد في آفاق السماء ولو تساءلنا ما الذى حمل معاوية على استدعاء الزرقاء من الكوفة الى بلاد الشام في أحسن جهاز .

هل ليظهر لها ولقومها أنه المنتظر المتربع على عرش الخلافة ؟ لأنها قالت لهذا اليوم ما بعده .

أم ليتأكد أن الزرقاء ما زالت على شيعيتها لعليّ ؟

---

(١) غير ناكصين : شجعان يثبتون ولا يفرون

(٢) العقد الفريد جـ ١ / ٢٩٤ ، روائع الأدب د . نبيه حجاب ص ١٨٦

أو اعجابه ببلاغتها وفصاحتها واخلاصها لعقيدتها ؟ أو بــرّاً منه لشيعة عليّ ليستميلهم اليه ؟

نعم هو استدعاها ليبرّ بها وبقومها . واعجابك ببلاغتها وانني اعجب أيضا من بلاغتها حين اجابته بعد سؤاله ما حملك على الحض والقتال يوم صفين ؟ قالت : يا أمير المؤمنين " مات الرأس ، وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب ... والأمر يحدث بعده الأمر ، جوابها بالكناية كان لان معاوية يفهم ما ترمي اليه وتقصد .

وأعجب من شجاعتها وقوفها امام معاوية لا تهاب ولا تتنازل عن كبريائها حين قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت عليّاً في كل دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، وقالت والله لقد سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل .

فبهذا الأسلوب المحكم ، وبالالفاظ القوية ، والتشبيهات الرائعة افصحت الهمدانية عما يجيش في صدرها ، فكان كلامها آيات من البلاغة . فقد أصابت التشبيه في قولها : ان المصباح لا يضيء في الشمس وان خضاب النساء الحناء ، والرجال الدماء ، وخاصة دماء الشهداء فهي نور على نور ، وشرف في الدنيا ، وشرف في الآخرة ، وقال حسان بن ثابت :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أعقابنا تقطر الدّما (١)

---

(١) شعر الدعوة الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين / ص ٧٧

وفي الاستعارة حين جعلت للفتنة جلابيب وحين صورتها عمياء صماء / خبط عشواء . والعرب تقول : الحرب غشوم : لانها تنال غير الجاني .

واخيرا ناشدتهم الصبر والثبات ، ولا يخافون الموت وفي معناها قول خبيب :

وما بي حذار الموت اني لميّت

ولكن حذارى جحم نار ملفح (١)

خوفا من النار لكل من يتنصل عن الاقدام والذود عن الحق فلا غرو ان شاركت عليّا في كل دم سفكه كما يقول معاوية .

ومن المعروف ما حدث بعد معركة صفين تنازل الحسن لمعاوية بالخلافة فاستنكر كثير من الشيعة هذا التنازل والصلح الذى تم بينهما فيخطب الحسن فيهم بقوله :

أما بعد ، فانكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس مني وأشد شكيمة ، ولكان رأيي غير ما رأيتم لكني أشهد الله واياكم أنني لم أرد بما رأيتم الا حقن دمائكم ، واصلاح ذات بينكم .

فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلموا الأمر لله ، والزموا بيوتكم وكفوا ايديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر .

---

(١) العقد الفريد ج ١ /ص ٧٣

مع أن أبي كان يحدثني ان معاوية سيلي الأمر ، فوالله لو سرنا اليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، ان الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه وأما قولك " يا مذل المؤمنين (١) فوالله لان تذلوا وتعافوا أحب الى الله من أن تعزو وتقتلوا ، فان ردّ الله علينا حقنا في عافية ، قبلنا وسألنا الله على أمره . وان صرفه عنا رضينا ، وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا فليكن كل رجل منكم حلسا (٢) من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حيا ، فان يهلك ونحن وأنتم احياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا الى انفسنا ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . (٣)

واقول بعد هذه الخطبة صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل على ابنته فاطمة ، فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها ، فقال لها ان الله تعالى سيصلح على يدى ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين . (٤)

وبعد الصلح كانوا يقولون له " يا عار المؤمنين فيرد عليهم العار خير من النار" (٥)

---

(١) دخل سليمان بن الصرد ، وكان سيد العراق فقال للحسن : السلام عليك يا مذل المؤمنين (الامامة والسياسة) جـ١ / ١٢٠

(٢) ملازما : والحلس في الأصل بساط البيت

(٣) الامامة والسياسة ١ / ١٢٠

(٤) العقد الفريد جـ١ / ٢٦٨

(٥) اليعقوبي ٢ / ٢٥٥

وعلى الرغم مما عرف به الحسن من حبسة في اللسان كان خطيبا مجيدا وقد أراد عمرو بن العاص أن يظهر للناس عيبه فأشار على معاوية أن يطلب اليه الخطابة وكان قد قسم عليّ هو والمغيرة بن شعبه فقام الحسن وتكلم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

" أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فحشا ألفته وسوء رأى عرفت به ، وخلقا سيئا ثبت عليه ، وبغيا علينا عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين (١) كلتيهما ، وأنت يا معاوية بهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما بيعة الفتح (٢) وبيعة الرضوان (٣)

يستقبل

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم/القبلة وهو بمكة ، فلما هاجر الى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفا لليهود فصلى اليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول .

(٢) روى الطبرى في تاريخه قال : " ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فجلس لهم — فيما بلغني على الصفا — وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الاسلام فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ومنهم هند أم معاوية " ... الى آخر القصة ٣/١٢٧ — وكان معاوية ممن اسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ٦ هـ حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت فيما بعد بشجرة الرضوان .

وأنت يا معاوية باحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه اول الناس ايمانا ، وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر ، وتظهرون الاسلام ، وتستمالون بالأموال ، وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يوم بدر وأن راية المشركين كانت مع معاوية وأبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، ومعك ومع ابيك راية الشرك وفي كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآله في تلك المواطن كلها عنه راض . وعليك وعلى أبيك ساخط ، وأنشدك الله يا معاوية أتذكر يوما جاء على جمل أحمر وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فقال : " اللهم العن الراكب والقائد والسائق " أتنسى يا معاوية الشعر الذى كتبته الى أبيك — لما همّ ان يسلم — تنهاه عن ذلك :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا
بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا (١)
خالى وعمى وعم الأم ثالثهم
وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا (٢)

---

(١) المزق : جمع مزقة وهي القطعة من الثوب .
(٢) الأرق : أى لشدة الحزن والأسى

لا تركنن الى أمر تكلفنا
والراقصات به في مكة الخرقا (١)
فالموت أهون من قول العداة لقد
حاد ابن حرب عن العزى اذا فرقا (٢)

والله لما أخفيت من أمرك ، أكبر مما ابديت ، وأنشدكم الله ايها الرهط أتعلمون أن عليا حرم الشهوات على نفسه بين اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فأنزل فيه ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم ﴾ وان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أكابر اصحابه الى بني قريظة ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث عليا بالراية ، فاستنزلهم على حكم الله ورسوله وفعل في خيبر مثلها ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، لما أراد ان يكتب كتابا الى جذيمة (٣) فبعث اليك ونهمك (٤) الى أن تموت ،

---

(١) الخرق : محركه هو عدم التصرف في الأمور

(٢) فرق : فزع

(٣) في الأصل " خزيمة " وهو تحريف ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة ابن كنانة بعث الرسول اليهم خالدا حين افتتح مكة داعيا ، ولم يبعثه مقاتلا فعمل فيهم السيف فلما انتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال : اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد ، ثم دعا علي بن أبي طالب وبعثه رسول الله فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال حتى انه ليدي ملبغة الكلب حتى اذا لم يبق شيء من دم أو مال الا وداه بقيت معه بقية من مال فاعطاهم اياه ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره الخبر فقال : أصبت وأحسنت .

(٤) نهمك : زجرك

وأنتم ايها الرهط نشدتكم الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها .

أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله خارجا من مكة الى الطائف يدعو ثقيفا الى الدين ، فوقع به ، وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهمّ ان يبطش به فلعنه الله ورسوله وصرف عنه .

والثانية يوم العير اذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وهي جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها ، فلم يظفر المسلمون بها . ولعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآله في أعلاه وهو ينادي اعل هبل (١) مرارا فلعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابتهل .

والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش ، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد والهدى معكوفا أن يبلغ محله (٢) ذلك يوم الحديبية فلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أبا سفيان ولعن القادة والاتباع وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن فقيل يا رسول الله أفما يرجى الاسلام لأحد منهم فكيف اللعنة ؟ فقال : لا تصيب اللعنة

---

(١) اى اعل وانتصر يا هبل وهو صنم كان في الكعبة

(٢) والهدى ما يهدى الى مكة ، معكوفا : محبوسا وهو حال وهو لم يصل الى الحرم وينحر .

أحداً من الاتباع • وأما القادة فلا يفلح منهم أحد •

والسادسة يوم الجمل الأحمر •

والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ليستنفروا ناقته وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو سفيان • فهذا لك يا معاوية • وأما أنت يا ابن العاص فان أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا من عهر (١) وسفاح • فتحاكم فيك اربعة من قريش • فغلب عليك جزارها ، الأمهم حسبا وأخبثهم منصبا • ثم قام ابوك فقال : أنا شانئ محمد الأبتر (٢) فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله في جميع المشاهد • وهجوته وآذيته بمكة ، وكدته كيدك كله • وكنت من أشد الناس تكذيبا له وعداوة • ثم خرجت تريد النجاشي مع اصحاب السفينة لتأتى بجعفر واصحابه الى أهل مكة فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا وأكدبك واشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به الى النجاشي حسدا

---

(١) عهر : فجور

(٢) الشانئ : المبغض السهل : وذلك أن العاص بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم فنزل فيه * ان شانئك هو الأبتر * اى المنقطع عن كل خير الذى لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك وآثار فضلك الى يوم القيامة فهو الأبتر لا أنت •

لما ارتكب من حليلته (١) ففضحك الله وفضح صاحبك ـ فأنت عد و بنى هاشم في الجاهلية والاسلام . ثم انك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بسبعين بيتا من الشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : اللهم اني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك اذن من الله ما لا يحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت

---

(١) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر الى الحبشة كما قدمنا ـ وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء وكان مع عمرو بن العاص امرأته ـ فلما صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة وقد لامرأة عمرو قبليني ، فقال لها عمرو قبلي ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة وجعل براودها عن نفسها فامتنعت منه ، ثم ان عمر اجلس على منجاف في السفينة يبول فدفعه عماره في البحر ، فلما وقع عمرو سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه أراد قتله ومضيا حتى نزلا الحبشة ، فلما اطمأنا بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته فاختلف اليها ، وجعل اذا رجع من مدخله يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ان شأن هذه المرأة أرفع من ذلك .... واخيرا قال له ان كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذى لا يدهن به غيره ، فاني أعرفه واتني بشيء منه حتى أصدقك قال : أفعل فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في قارورة فقال عمرو أشهد أنك صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ، ما سمعنا بمثل هذا ، فوشى به عند النجاشي ونال عمارة جزاءه .

من أمر عثمان فأنت سعرت(١) عليه الدنيا نارا ثم لحقت بفلسطين فلما أتاك قتله قلت .. " أنا ابو عبدالله اذا نكأت القرحة أدميتها " ثم حبست نفسك الى معاوية ، وبعت دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حيا ، ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يا ابن العاص ! ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة الى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟
وما السير مني بمستنكر
فقلت : ذريني فاني امرؤ
أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كيّة
أقيم بها نخوة الأصعر (٢)
وشانئ أحمد من بينهم
وأقولهم فيه بالمنكر

---

(١) سعر النار : اوقدها : كان عمرو بن العاص واليا على مصر منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم ان عثمان ولى عبدالله بن أبى السرح خراج مصر وولى عمر بن العاص على الجند فلم يتفقا فجمع لعبدالله الخراج والجند وعزل عمرا فلما قدم المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليه .

(٢) الصعر محركه : الميل في الخد .

وأجرى الى عتبة جاهدا

ولو كان كالذهب الأحمر (١)

ولا انثنى عن بني هاشم

وما اسطعت في الغيب والمحضر

فان قبل العتب مني له

والا لويت له مشفرى (٢)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟ ثم رد على الوليد وعتبة (٣) ثم عاد للمغيرة .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه وانما مثلك مثل البعوضة اذ قالت للنخلة : " استمسكي فاني طائرة عنك " فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعة عليّ ، فاعلم بك طائرة عني ؟ والله ما نشعر بعداوتك ايانا ، ولا اغتممنا اذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك وان حد الله في الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقا ، الله سائله عنه ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : هل ينظر الرجل الى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان وأما فخركم علينا بالامارة فان الله تعالى يقول « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

---

(١) كالذهب الاحمر : أي في صعوبة الوصول اليه .

(٢) مشفرى الشفر للبعير : كالشفة للانسان وقد يستعمل في الناس

(٣) راجع جمهرة خطب العرب ج ٢ / ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠

ثم قام الحسن فنفض ثوبه : فتعلق عمرو بن العاص بثوبه فقال : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فيّ وقذفه أمي بالزنا ، وانا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية : خل عنه ، لا جزاك الله خيرا ،فتركه قد أنبأتكم أنه مما لا تطاق عارضته (١)

التعليق :

انني اعجب من هذا النفس الطويل الذى جاء بعد صبر مرير حين سمع شتم على رضى الله عنه باسلوب خطابى يرتكز على فصاحة اللسان منسق ذى دلالة واضحة .

فبلاغته في المعانى ظاهرة في اللفظ الموجز ، وفي التخلص من الخصم بالحق حين ما ذكر عليا رضى الله عنه ومنزلته وبالمقابل ذكر معاوية ولعنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل معاوية حانقا على عمرو بسبب مشولاته هذه التي أدت الى فضحه وخزيه .

ولجأ الى اسلوب التمثيل ليكون كلامه في النفس أوقع وأبلغ حين قال " انما مثلك مثل البعوضة اذ قالت للنخلة : " استمسكى فانى طائرة عنك " فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعة علىّ فأعلم بك طائرة عنى " والله لقد ابلج في التعبير وفاز .

ثم الاقتباس من القرآن الكريم ﴿ واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا ... ﴾ الاية

---

(١) شرح ابن ابى الحديد م ٢ ص ١٠١ ، جمهرة خطب العرب ج ٢/ص ٢٢ — ٣١

وعاش الحسن بالمدينة حتى توفي سنة ٤٨ هـ ويقال مات مسموما بأمر من معاوية .

ولما توفي معاوية كان قد أخذ البيعة لابنه فتولى يزيد الخلافة وأرسل الى عامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة منهم الحسين فرفضوا وراسلته الشيعة بالكوفة ، وبعثوا اليه كتبا يستقدمونه فيها فخرج اليهم ، ولم يستمع الى تحذير المحذرين ، ولم يكن يعلم بمقتل مسلم بن عقيل ، وتخلى الشيعة عنه ، فأخذ على حين غرة وقتل بكربلاء بعد أن رفض ان يبايع يزيد ، فندم الشيعة على تخليهم عن الحسين والتفريط في دمه ، فخطب فيهم سليمان بن الصرد ببلاغة متدفقة وعاطفة حارة يقول :

انّا كنا نمد اعناقنا الى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ، ونحثهم على القدوم فلما قدموا ونينا وعجزنا وأدهنا وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ولدينا ، ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة (١) من لحمه ودمه ، اذ جعل يستصرخ ويسأل النصف (٢) فلا يعطاه ، اتخذه الفاسقون غرضا للنبل ، ودرية (٣) للرماح ، وعدوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا تراجعوا الى الحلائل (٤) والابناء حتى يرضى ، والله ما أظنه راضيا دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا (٥)

---

(١) بضعة : قطعة من اللحم

(٢) النصف : الانصاف

(٣) ودرية : مسهل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة التي يتعلم عليها الطعن والرمي

(٤) الحلائل : جمع حليلة وهي الزوجة

(٥) تبيروا : تهلكوا .

ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل ، كانوا كالأولى من بنى اسرائيل اذ قال لهم نبيهم ﴿ انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ فما فعل القوم ؟ حثوا على الركب والله ومدوا الاعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب الا الصبر على القتل ، فكيف بكم لوقد دعيتم الى مثل ما دعى القوم اليه ؟
اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ حتى تدعوا وتستنفروا (١)

التعليق :

نرى في الخطبة روح التشيع واضحا ، وهي تعبر عن عواطف صادقة ونفس ثائرة ، شديدة الحزن والحسرة ، على قتل الحسين لأنهم يحبون آل البيت ولكنهم خشية بطش الأمويين خذلوه.

ففي الخطبة افكار مرتبة دالة على شخصية الخطيب ومهارته في الاعداد فقد بين لهم وضعهم في فكرة واضحة ، وهو تخاذلهم وضعفهم وتركهم ابن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يستصرخ ويسأل النصف ويخيرهم بين أمرين احلاهما مر وهو الاعداد ما استطاعوا من قوة ، ليناجزوا من قتله ، او يهلكوا .

ثم هجاء الأمويين في قوله : اتخذه الفاسقون غرضا للنبل ، ودرية للرماح . كل ذلك في اسلوب قوى العبارة ، جزل الالفاظ ، معتمدا على

---

(١) جمهرة خطب العرب جـ١ / ص ٦٠ وما بعدها

القرآن دالا على بلاغته .

وبعد مقتله وجه عبيد بن زياد عليه لعنة الله آل الحسين الى يزيد بن معاوية بدمشق ، فلما مثلوا بين يديه ، أمر برأس الحسين فابرزت في طست ،فجعل ينكث ثناياه بعود في يده وهو يقول من ابيات لعبدالله بن الزبعرى أحد مشركي قريش :

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل (١)
لأهلوا واستهلوا فرحا
ثم قالوا يا يزيد لا تشل (٢)
فجزيناهم ببدر مثلها
وأقمنا ميل بدر فاعتدل

فقالت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :
صدق الله ورسوله يا يزيد * ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون * أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فاصبحنا نساق كما يساق الاسارى أن بنا هوانا على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وان هذا لعظم خطرك فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفيك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور منسقة عليك ،وقد امهلت ونفست (٣)

---

(١) الأسل : الرماح
(٢) لا تشل : جملة دعائية . أي لا كلت يمينك وهذا البيت من انشاء يزيد
(٣) نفست : أفسح لك في أمرك .

وهو قول الله تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ، ولهم عذاب مهين ﴾ .

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك[١] نساءك واماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك وقد هتكت ستورهن ، وأصحلت صوتهن[٢] مكتئبات تخدى[٣] بهن الأباعر ، ويحدو بهن الاعادى من بلد الى بلد ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن ولىّ من رجالهن ... أتقول : (ليت اشياخي ببدر شهدوا) غير متأثر ولا مستعظم ؟ وأنت تنكث ثنايا ابن عبدالله بمخصرتك ولم لا تكون كذلك وقد نكأت[٤] القرحة ، واستأصلت[٥] الشأفة باهراقك ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ولتردن على الله وشيكا[٦] موردهم ، ولتودن لو أنك صممت وبكمت وأنك لم تقل (فاستهلوا واهلوا فرحا) اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا . والله ما فريت الا في جلدك ، ولا حززت الا في لحمك وسيعلم من بوأك[٧] ومكنك من رقاب المؤمنين ،

---

(١) تخديرك : صونهن في الخدور .

(٢) وأصلحت : ابححته

(٣) تخدى : تسرع ، من الوخد وهو ضرب من السير السريع

(٤) نكأت : ازلت القشر قبل أن تبرأ وهي كناية عن اثارة العداوة بين الامويين والهاشميين من جديد

(٥) استأصلت : قطع اصلها

(٦) وشيكا : سريعا

(٧) بوأك : انابك واجلسك على كرسي الخلافة وهو معاوية .

اذا كان الحكم لله ، والخصم محمد صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك ، * فبئس للظالمين بدلا — انكم شر مكانا واضعف جندا * مع انى والله يا عدو الله وابن عدوه استصغر قدرك واستعظم تقريعك (١) غير أن العيون عبرى (٢) ، والصدور حرى (٣) وما يجزى ذلك أو يغنى عنا .

وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان (٤) يقربنا الى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الايدى تنطف (٥) من دمائنا وهذه الأفواه تتحلب (٦) من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى يعتامها (٧) عسلان (٨) الفلوات فلئن اتخذتنا مغنما ، لتتخذن مغرما حين لا تجد الا ما قدمت يداك » (٩)

العرض والتحليل :

سجل التاريخ الاسلامي كثيرا من الوان العذاب التى قاسى منها الشيعة على يد الأمويين وولاتهم فزياد بن سمية كان يتتبع الشيعة في الكوفة ويقتلهم تحت كل حجر ومدر ، ويصلبهم على جذوع النخل ويقطع أيديهم وارجلهم .

---

(١) تقريعك : اللوم والتأنيب

(٢) عبرى : دامعة من هول المصيبة

(٣) حرى : شديدة الحرارة كناية عن الحزن

(٤) حزب الشيطان : الوالي عبيد بن زياد ورجاله

(٥) تنطف : تقطر

(٦) تتحلب : يسيل لعابها ، كناية عن شدة الشهوة الى الطعام .

(٧) يعتامها : يختارها ويقصدها

(٨) عسلان : الذئاب

(٩) بلاغة النساء .

بيد أن يزيد بن معاوية بلغ من اعماله وافعالـه ما لا يبلغه الا كل جبار عنيد ، فقد آذى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ واننى اعجب وهم ابناء عمومه ، ففى السنة الاولى من ولايته أمر بقتل الحسين ، ثم موقعة الحره واباحته المدينة ، وضرب الكعبة بالمنجنيق كل هذه نقاط كانت سببا في سقوط الدولة الأموية .

ولم يكتف بالقتل ، وانما يأتى برأسه الطاهرة ، وينكث ثناياها بقضيب في يده ، على مرأى من اخته ، ويتمثل بشعر ابن الزبعرى فى أحد مما يدل على الاحن البدوية المعروفة الباقية ، فامام هذا الاضطهاد ، والانفعال الشديد والحزن العميق قام افصاح بليغ حين وقفت السيدة زينب تعبر عن الامها وغيظها من طغى عليه الهوى وآثر الحياة الدنيا ، بمقدمة تناسب المقام الذى تقصده ، والى الغرض الذى اليه ترمى حين قالت ﴿ ثم كانت عاقبة الذين اساءوا السوئ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

ثم نددت بظلمة وذكرت أنه استقدمهن ، وقد هتكت ستورهن وهن الحافظات لقوله تعالى ﴿ وليدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى أن يعرفن ﴾ ليته استدعاها كما استدعى معاوية الزرقاء معززة مكرمة ، وانما قصد بذلك اهانتهن ولكن هيهات . الا تذكر يا يزيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للحادى " رفقا بالقوارير " كيف وهن تحدو بهن الاباعر .

ثم انظر الى شجاعتها ، وتيقنها من اعتقادها انها من آل البيت وان دالت ايامهم ـ فالذهب ذهب ايثما وضع ـ وأن بنى أمية وان ظهرت

دولتهم فبئس الحزب هم . * انهم شر مكانا واضعف جندا * ، وأن لا ينظر في تيه وكبرياء لان النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال (١) "العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما قصمته وأهنته" وكيف يستقر الكبر فيمن خلق من تراب .

ثم بماذا تجيب يوم الحساب ، يوم يكون الحكم الله والخصم رسول الله ، يومها سيعلم ابوك الذى مكنك من رقاب المؤمنين ، أي طريق سلكتم وأي حق اضعتم قال ابراهيم النخعي : لو كنت فيمن قتل الحسين ودخلت الجنة لا ستحيت أن انظر الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

والخطبة كما نرى جياشة العاطفة ، عاطفة الاخت نحو أخيها الشهيد ، فنراها تزخر بالتهجم على يزيد وتهدده بعقاب الله ، والاسلوب يفيض بالتشبيهات البارعة المصورة ، والجمل القصيرة التي تزيد المعنى تأثيرا وقوة ، فهذه الايدى تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا . ثم الاقتباس من القرآن فالايات التي أوردتها جاءت تعبيرا صادقا عما أرادت أن تقول ، لأن بلاغة القرآن لها من التأثير الوجداني والبلاغي ما لا يخفى على سامع .

ثم اسلوب الاستفهام الحزين الذى يصور الفجيعة والعمل البشع الذى يدل على الحقد والكراهية في قولها " أتقول : (ليت اشياخي

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٣
(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٢٥

ببدر شهدوا) غير متأثر ولا مستعظم ؟ وأنت تنكث ثنايا ابن عبد الله بمخصرتك " كل هذا في اسلوب حزين يذيب لفائف القلوب . يقول دعبل الخزاعي :

رأس ابن بنت محمد ووصيه

يا للرجال على قناة ترفع

والمسلمون بمنظر وبمسمع

لا جازع من ذا ولا متخشع

يقول نيكلسون " جميع المؤرخين ، الذين يكادون يجمعون على بغض الأمويين وعدائهم ، يعتبرون الحسين بن علي شهيدا ، في الوقت الذي يعتبرون فيه يزيد بن معاوية سفاكا (١) وأقول ان يزيد ﴿ من الاخسرين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا ﴾ (٣)

---

(١) الخطابة في عصر صدر الاسلام ج٢ / ص٥٤
(٢) سورة الكهف آية ١٠٣
(٣) سورة الاحزاب اية ٥٨

خصائص خطب الشيعة :

(١) — ان نشاط الشيعة أو العلويين السياسي لا بد أن يقترن بنشاط ادبي والواقع انهم منهما ظاهرة تستمد روافدها من عقيدة أصيلة ، هي انهم اصحاب الملك المغتصب ، وهم ينتسبون الى البيت النبوى الهاشمى .

هذه الفكرة والعقيدة ظهرت في جل خطبهم وأثارت جدلا واحتجاجا بين الشيعة وخصومهم ، ومن خلال نشاطهم الادبي نتبين ظاهرة السخط على هؤلاء الغاصبين من الأمويين ، والحزن والأسى على ما وجد ، أهل بيت رسول الله من انواع العذاب والألم ، وسوء التصرف ، وهم لا يملكون قوة مادية كالتي يملكها خصومهم ، فماشوا ناقمين يطلقون ألسنة ساخطة في أدب مصطبغ بالحزن حتى في الجدل والاحتجاج . فهذه زينب بنت على رضى الله عنه في خطبتها السابقة حين تقول محتجة " يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك واماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد هتكت ستورهن واصحلت صوتهن ... الى قولها يتشوفهن القريب والبعيد ليس معهن ولى من رجالهن .

(٢) — كانت خطبهم تظهر فيها فنون شتى احتجاج ، وتصوير ومديح ، ورثاء وابتهال الى الله ثم هجاء الامويين .

فالتصوير في كلام السيدة ام كلثوم حين ما قتل الحسين قالت : أتدرون أيّ كبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فريتم ، وأى كريمة له ابرزتم ، وأى دم له سفكتم ؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء (١) شرها

---

(١) خرقاء : من الخرق وهو ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

طلاع (١) الارض والسماء ، أفجعتم ان قطرت السماء دما ، ولعذاب الاخرة أخزى وهم لا ينصرون " (٢)

اما المديح والرثاء في رثاء محمد بن الحنفية (٣) للحسن بن على حين وقف على قبره وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

(رحمك الله أبا محمد ، فلئن هزت حياتك لقد هددت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك . وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ، وخامس اصحاب الكساء (٤) وخلف أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر الطيار (٥) في جنة المأوى .

العقد الفريد جـ٢/٧

---

(١) طلاع الشيء : ملوءه (٢) جمهرة خطب العرب جـ١/١٣٥

(٣) هو محمد بن على بن ابي طالب ، والحنفية أمه ، وهي من بني حنيفة وتسمى حولة بنت جعفر .

(٤) أصحاب الكساء هم : النبي صلى الله عليه وسلم ، والامام على والحسن والحسين ابناء على وفاطمة الزهراء . قال ديك الجن :

والخمسة الغر اصحاب الكساء معا خير البرية من عجم وعرب

ولهذا الكساء قصة اشار اليها الثعالبي في كتابه ثمار القلوب .

(٥) هو جعفر بن ابي طالب استشهد في غزوة موءتة سنة ٨ هـ ، اثر عنه قوله حينما حمل الرايه بعد زيد ابن حارثة الذى استشهد قبله في هذه الغزوة :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

ورآه النبي يطير مع الملائكة في الجنة ولذلك لقب بالطيار .

والابتهال كثير في خطبهم تقول السيدة زينب رضي الله عنها : اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا .

ثم هجاء الامويين في خطبة ابي حمزة الشارى الخارجي —

ثم ولي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ويزيد الصيود ، ويزيد القرود ، الفاسق في بطنه ... فخالف القرآن واتبع الكهان ، ونادم القرود ، وعمل بما يشتهيه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله (١) .

والسيدة زينب تقول :

* فبئس للظالمين بدلا — انكم شر مكانا وأضعف جندا * ، مع اني والله يا عدو الله وابن عدوه استصغر قدرك وأستعظم تقريعك . (٢)

(٣) — ان خطب الشيعة ممزوجة سياسية ومذهبية ، معانيها مستمدة من هذه القيم والحقوق تعتمد على القرآن الكريم في جميع خطب الشيعة .

(٤) — والشيعة يختلفون عن الخوارج في الاخلاص لعقيدتهم ومذهبهم ولم يجاهدوا كالخوارج ويناصرون آل البيت فهم ياخذون بمذهب التقية والمداراة ، فلما قتل الحسين وقفت أخته تقرع اهل الكوفة وتلومهم تقول :

---

(١) ادب السياسة د . احمد الحوفي /ص ٢٨٦

(٢) الخطبة السابقة

يا أهل الكوفة ، يا أهل الختر(١) والخذل ، لا فلا رقأت(٢) العبرة ولا هدأت الرنه(٣) انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، الا وهل فيكم الا الصلف(٤) والشنف(٥) وملق الاماء ، وغمز الاعداء ، وهل أنتم الا كمرعى على دمنه.(٦)

(٥) — ولما لم يكونوا في الورع والتقى مثل نظرائهم فهذه الظاهرة النفسية لها أثرها في قوة الدفاع ، فأصابهم شعور باليأس من رجوع هذا الحق والى كثرة المحن التي حلت بهم على ايدى اعدائهم الباغين الطغاة . وقد انتهت بهم هذه المصائب المتصلة الى ضرب من الاذعان يمازجه الاعتقاد بأن الله سينتقم لهم من اعدائهم .

(٦) — واسلوبهم يجمع بين الهدوء ، والقوة ، والرقة :

أ — فالهدوء يكون حين يسلكون سبيل التقرير . فالشيعة يرون حقهم في تولي الخلافة صريحا واضحا ، فيقول عبيد الله بن عبدالله المري :

هل خلق ربكم في الأولين والاخرين اعظم على هذه الأمة

---

(١) الختر : الغدر والخديعة (٢) رقأت : هدأت وسكنت

(٣) الرنه : الصوت

(٤) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، او مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

(٥) الشنف : البغض

(٦) الدمنه : اثار الديار بعد الرحيل عنها اخذت من الحديث (اياكم وخضراء الدمن) وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .

من نبيهما ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم اعظم حقا على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ؟ (١)

ب — ومرة ثائرقوي حين يغضب على سلوك الخصم كقول السيدة زينب :

" أتقول ليت اشياخي ببدر شهدوا • غير متأثم ولا مستعظم ؟ وأنت تنكث ثنا أبي عبدالله بمخصرتك ، ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة • (٢)

ج — ويكون رقيقا حين يترجم الحزن والألم في قول السيدة زينب " غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يغني ذلك عنا "

ويقول ابن الحنفية لأخيه الحسن :

فطبت حيّا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك أنها غير شاكة أن الله قد خير لك ، وأنك وأخاك لسيد شباب أهل الجنة فعليك أبا محمد منا السلام (٣)

لذلك عرف جل رجال بني هاشم بفصاحة اللسان واجادة الخطابة وبحضور البديهة عند تناظر الاقران •

يقول الكميت في مدحهم :

---

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي
(٢) الخطبة السابقة
(٣) معجم الأدباء ١٠٣/١١

الى النفر البيض الذين يحبهم
الى الله فيما نابني أتقرب
بني هاشم رهط النبي فانني
بهم ولهم أرض مرارا وأغضب (١)

يقول دعبل الخزامي :

ملا مك في أهل النبي فانهم
أحبائي ما عاشوا وأهل ثقاتي
فيا رب زدني من يقيني بصيرة
وزد حبهم يا رب في حسناتي
أحب قصي الرحم من أحل حبكم
وأهجر فيكم أسرتي وبناتي
ألم ترأني من ثلاثين حجة
أروح وأغدو دائم الحسرات (٢)

ومن خطباء بني هاشم ايضا : داود بن علي (٣) ويكنى أبا سليمان وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ، ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قط . وله كلام كثير معروف محفوظ فمن ذلك خطبته على أهل مكة :

---

(١) تاريخ الشعر السياسي احمد الشائب / ص ٢٣٨

(٢) العقد الفريد ج٢/ص٧

(٣) هو داود بن علي بن عبدالله بن العباس . قال ابن قتيبة في المعارف سنة ١٦٣ عند ذكر عمومة ابي العباس السفاح : فأما داود فكان خطيبا جميلا يكنى أبا سليمان وولي مكة والمدينة لأبي العباس ، وأدرك من دولة العباسيين ثمانية أشهر ومات ١٣٣ هـ وله عقب .

" شكرا شكرا أما والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهرا ، ولا لنبني فيكم قصرا أظن عدو الله أن لن نظفر به أن أرخي له في زمانه ، حتى عثر في فضل خطامه . فالآن عاد الامر في نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها والآن أخذ القوس باريها ، وعادت النبل الى النزعة ، ورجع الحق الى مستقره في اهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة .(١)

ومن هذا العرض يتضح لنا ان نقطة الارتكاز في خطب الشيعة تتجلى في مدى نقمتهم وسخطهم على بني أمية الذين سلبوهم تراثهم وغصبوهم حقهم فهم يرون ان الخلافة حقهم وحدهم دون سائر الاحزاب وسفكوا دماء آل البيت وبطشوا بزعماء الشيعة . فمن الطبيعي اذن ان تمتلئ صدورهم سخطا ونقمة عليهم فتتجلى في خطبهم .

---

(١) البيان والتبيين جـ٢ / ٢٣١ — ٢٣٢

الفصل الثاني

الخوارج

هم اولئك الذين خرجوا على الامام علي رضي الله عنه من صفوف جنده بعد وقعة صفين بين الامام ومعاوية لأنهم يرون أن التحكيم كان خدعة حربية لجأ اليها معاوية وصحبه لمّا أحسوا بالهزيمة ويقول الطبري : خرجوا الى صفين سنة ٣٦ هـ مع علي وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم ويقول الآخرون : فارقتم امامنا وفرقتم جماعتنا .(١)

ويسمون المحكمه لقولهم " لا حكم الا لله " .

وايضا " الشّراه " لانهم يبتغون بعملهم الآخرة .(٢)

وحين ما سمعهم علي بن ابي طالب يقولون لا حكم الا لله قال :
" كلمة حق يراد بها باطل " (٣). وقد أبوا ان يدخلوا الكوفة مع علي رضي الله عنه في عودته ، وعبثا حاول اقناعهم ونزلوا قرية يقال لها حروراء فنسبوا اليها وعرفوا بالحرورية .

فحاربهم علي في موقعة النهروان وهزمهم وقتل منهم كثيرا فازدادوا كرها له ودبروا أمر قتله ، وقتله عبد الرحمن بن ملجم

---

(١) تاريخ الطبري ٣٥/٦ (٢) وقيل : لانهم باعوا انفسهم في سبيل الله.
(٣) فجر الاسلام / احمد امين / ص ٢٥٩

الخارجي ، كان زوجا لامرأة قتل كثير من افراد اسرتها في موقعة النهروان .

وقد كان الخوارج اشد الأحزاب خطرا على الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها بكل ما أوتوا من قوة في شجاعة نادرة ، وعقيدة صادقة حتى كادوا في بعض المواقف ان يقضوا على الدولة الأموية لولا شجاعة عبد الملك بن مروان .

وهم فرعان : فرع بالعراق وما حولها . ومن اشهر رجالهم نافع بن الازرق وقطري بن الفجاءة .

وفرع بالجزيرة واهم امرائهم نجده بن عامر الحنفي .

بلاغة الخوارج :

قال الحجاج لرجل من الخوارج : والله انك من قوم ابغضهم !
قال له أدخل الله أشدنا بغضا لصاحبه الجنة .

فبلاغتهم صدى لما يجيش في صدورهم من خواطر ثائرة تتجلى في تخير اللفظ وفصاحة الأسلوب ، لأنهم عكفوا على كتاب الله وتأثروا ببلاغته واستشهدوا بآياته فكان كلامهم مؤثرا في قلوب سامعيه ، وقد قيل لكلام هؤلاء/أزنه أسرع الى القلوب من النار الى البراع .(١)

ذكروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فوجد منه ما شاء علما وفهما ، ثم وجد ما شاء أدبا ، فرغب فيه واستدعاه

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٢/ ١٨٢

الى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محققا ، فزاده في الاستدعاء فقال له : لتغنك الأولى عن الثانية وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل فقال له قل . فجعل يبسط له من قول الخوارج و يزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينه ، ومعان قريبة فقال عبد الملك : " لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم واني اولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت الى ما ثبت الله علىّ من الحجة ووقر في قلبي من الحق (١) .

وكان الخوارج يعتمدون على الخطابة في حروبهم ، وهم قوم اشتهروا بالبأس والصبر على القتال ، والاخلاص لعقيدتهم ، يرون الاستشهاد في سبيلها حلو المذاق وفي شجاعتهم النادرة يروى ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها ام حكيم وكانت من اشجع الناس وأجملهم وجها وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب الى ذلك وأخبر من شاهدها في الحرب تحمل على الناس وترتجز :

احمل رأسا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

قال وهم يفدونها بالآباء والامهات ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها (١) و يروى ان ابن زياد اقسم لئن ظفر بخارجية ليجعلنها نكالا وعبرة لنبرها ، ومن هؤلاء النساء البلجاء التقية العالمة ، نصحها ابو بلال ان تهرب من تنكيل زياد بها فقالت في رباطة جأش : ان يأخذني فهو

---

(١) الاغاني للاصفهاني ج٦/ص٢٢٣٠

أشق بي فأخذها ابن زياد وقطع يديها ورجليها وصلبها عريانة ، فرآها ابو بلال وعض على لحيته وقال لنفسه : لهذه اصيب نفسا عن بقية الدنيا يا مرداس (١)

والسبب في عمله هذا ارهابهن لانهن يشاركن في الزحوف ، و يتقدمن الى الحتوف و يلهبن حماس الجيوش هذه الصفات جعلت للخوارج أدبا خاصا ونموذجا للأدب الاسلامي .

كان خطباء الخوارج يتواصون في خطبهم بالورع وازدراء الدنيا لان الحياة الدنيا متاع الغرور ، وألا يخدعهم بريقها ، فنجد في كلامهم حرارة الايمان وقوة العقيدة . يقول قطرى بن الفجاءة في خطبة له :

وأنتم تعلمون انكم تاركوها لا بد فانما هي كما وصفها الله باللعب واللهو وقد قال تعالى ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ واطمئنوا فيها بالذين قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ ؟ حملوا الى قبورهم فلا يدعون ركبانا ، وأنزلوا الأجداث (٢) فلا يدعون ضيفانا وجعل لهم من الضريح أكنانا (٢) ، ومن التراب اكفانا ، ومن الرفات جيرانا ، فهم جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، ولا يبالون مندبة ، ان اخصبوا لهم يفرحوا وان قحطوا لم يقنطوا ، جمع وهم آحاد ، وجيرة وهم ابعاد ، متناءون لا يزورون ولا يزارون ، حلماء قد ذهبت أضغانهم

---

(١) ادب السياسة في العصر الأموى د. احمد الحوفي / ص ٨٠

(٢) الأجداث : القبور - والأكنان الستر

وقد ماتت احقادهم لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دفعهم وكما قال تعالى ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ (١)

التعليق :

ان ادب الخوارج وخطبهم جديد في موضوعه وفي معانيه ، وفي الخطبه دعوة لمذهبهم وهو الجهاد والاسراع الى الموت لاعلاء كلمة الله .

واسلوبه جزل يعتمد على القرآن الكريم ، وهذه الخطبة تذكرنا بخطب الزهاد فهو يرغب في الآخرة ويصف حال الدنيا ، ويبين في اسلوب تقريرى حال الناس حين الارتحال ، وهو الانقطاع التام منها الا من ثواب عمله الصالح . ولا عجب فالخطباء هم الزعماء ، وهم حملة السيف لذلك كان لكلامهم قوة الاسلوب وصدق العاطفة وجمال البيان .

وهو القائل في شجاعة :

اقول لها وقد طارت شعاعا	من الابطال ويحك لن تراعى
فانك لو سألت بقاء يوم	عن الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا في مجال الموت صبرا	فما نيل الخلود بمستطاع

---

(١) البيان والتبيين ج٢/ص ١٢ ـ يقال : هي تنسب لعلى بن ابي طالب رضى الله عنه في نهج البلاغة شرح ابن ابي الحديد ويقول المحقق عبد السلام هارون قد رأيتها في كتاب الموشح للمرزبانى مروية لامير المؤمنين عليه السلام وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس يبعد عن ان قطرى خطب بها بعد أن اخذها من بعض اصحاب امير المؤمنين فان الخوارج كانوا اصحابه وأنصاره ، وقد لقى قطرى اكثرهم .

فجهادهم نابع من عقيدتهم وتقواهم ، يقتلون وهم سجود ركع .

يروى ان استنفر عبيد الله بن زياد الناس لقتال الخوارج ، واختار عبّاد بن علقمة المازني — المشهور بابن اخضر — لقيادة الجيش بفارس فالتقى بهم يوم جمعه . وقبيل المعركة قال زعيم الخوارج أبو بلال لعباد : اخرج الى يا عباد فانى أريد أن احاورك فخرج اليه فقال أبو بلال : ماالذى تبغى ؟ قال : أن آخذ باقفائكم فأردكم الى الأمير عبيد الله بن زياد .

قال أبو بلال : أو غير ذلك ؟ قال عباد ما هو ؟

قال ابو بلال : أن ترجع ، فانا لا نخيف سبيلا ، ولا نذعر مسلما ولا نحارب الا من حاربنا ، ولا نجبى الا من حمينا فقال له عباد : الأمر ما قلت لك .

ثم نشبت المعركة ، ولم يزل القوم يجتلدون حتى وقت صلاة الجمعة فناداهم ابو بلال : يا قوم هذا وقت الصلاة ، فوادعونا نصلى وتصلوا .

قالوا : لك ذلك فرمى القوم أجمعون اسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فأسرع عباد ومن معه ومالوا الى الحرورية فقتلوهم وهم بين راكع وساجد وقاعد (١) فبطولاتهم مبعث تقدير لهم .

ويزيد القول تاكيدا خطبة ابى حمزة الشارى حين بلغه أن اهل

---

(١) ادب السياسة في العصر الأموى د ٠احمد الحوفى / ص

المدينة يعيبون أصحابه لحداثة سنهم وخفة احلامهم فألقى خطبة ضافية بين فيها صفات اصحابه من الخوارج ختمها بقوله : " قد بلغني أنكم تنتقصون اصحابي • قلتم هم شباب احداث وأعراب جفاة — ويحكم يا أهل المدينة وهل كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير الا شبابا احداثا ؟ أما والله انى لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الاخذ فوق ايديكم • شباب والله مكتهلون (١) في شبابهم ، غضيضة عن الشد أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء (٢) عباده ، وأطلاح سهر (٣) باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا ، قد نظر الله اليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الارض ركبهم وأيديهم وجباههم ، ووصلوا كلال (٤) الليل بكلال النهار مصفرة الوانهم ، ناحلة اجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام مستقلون (ذلك) في جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، حتى اذا رأوا سهام العدو قد فوّقت (٥) ورماحهم قد أشرعت (٦) وسيوفهم قد انتضيت (٧) وبرقت

---

(١) اى احرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم
(٢) جمع نضو : وهو المهزول
(٣) جمع طلح : وهو كنضو ،
(٤) التعب والاعياء
(٥) فوق السهم أعده للرمى
(٦) اشرعت : سددت (٧) انتضيت : استلت

الكتيبة ، لقوا شبا (١) الأسنة ، وشائك السهام وظبات السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء وعفر (٢) جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا ساجدا ، وكم من وجه عتيق (٣) قد فلق بعمد الحديد ، ثم بكى وقال : آه آه على فراق الاخوان رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل ارواحهم الجنان (٤)

وقد وصف مالك بن أنس خطبة ابي حمزة بانها شككت المستبصر وردت المرتاب. (٥)

التعليق :

خطب الخوارج يتحقق فيها الوحدة الفنية ، فموضوع الخطبة واحد والمعاني من واد واحد ، وان بطولتهم وشجاعتهم وروحهم القوية التي تتجلى في قوة العزيمة والعقيدة والاستبسال في الجهاد مما يجعل خصومهم يتوقون لقاءهم . فقد قال البراء بن قبيصة للمهلب :

---

(١) شبا الاسنة : جمع شباه وهو حد كل شيء

(٢) عفر : اصابه العفر وهو التراب

(٣) عتيق : كريم

(٤) البيان والتبيين جـ٢ / ١٢٢ ، جمهرة خطب العرب جـ٢/٤٧٦

(٥) العقد الفريد جـ٤/١٤٤

ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك .

وقال الحجاج لما عاد اليه : رأيت قوما لا يعين عليهم الا الله (١)

وشهد المهلب نفسه بشجاعتهم في قوله : كيف نقاتل قوما هذا طعنهم ؟ لذلك نصب أبو حمزة للدفاع عن قومه ببلاغة متدفقة كل ركن من اركان البلاغة ابلغ من غيره .

ان اباحمزة مهد للموضوع بعرض عام لسياسة (٢) النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، ثم انتقل الى الحملة على معاوية و يزيد ، فلما فرغ دافع عن حزبه نلمح دقة التعبير في قوله : " شباب والله مكتهلو في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن في جوف الليل . لماذا ؟ لأن ﴿ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ .

وهذا دليل تقواهم وعكوفهم على تلاوة القرآن الكريم ، والتأثر بوعده ووعيده . وعملوا بأوامره واحكامه ، منها الجهاد فكانت بطولتهم مثلا يقتدى به فهم اذا رأوا سهام العدو قد فوقت و رماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انتضبت ، وبرقت الكتيبة و رعدت بصواعق الموت وحمى الوطيس استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يكن العكس فحبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها ، فالاستعارات التي اتى بها ابو حمزة الشاري — برقت الكتيبة جسمت المعنى وابرزت الأفكار .

---

(١) ادب السياسة في العصر الأموى / ص ٨١

(٢) راجع البيان والتبيين ٢/ ١٢٢ وما بعدها لتقرأ الخطبة كاملة .

ثم قوله أكلت الارض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم فهذه كناية عن طول السجود .

وناهيك عن براعة التصوير المشير للسامع ، فهو يعرض صورتين مثيرتين في قوله :

فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل .

وكم من يد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا ساجدا .

وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد .

فواحسرتاه على شباب شجمان عبّاد الليل كان جزاءهم القتل وتمزيق الأشلاء .

والاسلوب رصعه بجواهر المقابلة يتجلى في قوله : (استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة) فازدادت الصورة جلاء ورسوخا فضلا عن انتقاء اللفظ في قوله : (اختفت محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى ، فلا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه فطوبي لهم وحسن مآب .

وكما صور ابوحمزة حياة الشراة ورسم لنا كلمات تعرض حياتهم وروحهم وشوقهم الى الجنة عن طريق الجهاد ، فهو يتمنى أن يموت قبلهم :

فيا رب ان حانت وفاتي فلا تكن
على شرجع يعلى بخضر المطارف (١)
عصائب شتى يؤلف بينهم
هدى الله نزالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم
تقى الله نزالون عند التزاحف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى
وصاروا الى موعود ما في المصاحف
فأقتل قعصا ثم يرمى بأعظمي
كضغث الخلا بين الرياح العواطف (٢)
ويصبح لحمي بين طير مقبلة
د وبين السماء في نسور عواكف (٣)

فالبيت الثاني ، والثالث فيهما معنى خطبة لابي حمزة الشاري حين يقول :

فأقبلنا من قبائل شتى ، النفر (٤) منا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم يتعاورن لحافا واحدا ، قليلون مستضعفون في الأرض فآوانا الله وأيدنا بنصره واصبحنا والله جميعا بنعمته اخوانا . (٥)

---

(١) شرجع : نعش ، خضر المطارف : مغطى بغطاء أخضر
(٢) كضغث الخلد : كقبضة الكلأ
(٣) ادب السياسة : د . احمد الحوفي /ص١٩٦
(٤) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة الى عشرة
(٥) الاغاني : جـ ٢/ ١٠٤

واستطيع القول أن أدب الخوارج يذكرنا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف كانوا يفضلون الموت فداء الله ولرسوله ، ولعمري هذه هي البلاغة والمثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة .

خطبة حيان بن ظبيان في جمع من الخوارج يحضهم على الجهاد سنة ٥٨ هـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

" أما بعد فان الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فمنا من قضى نحبه ومنا من ينتظر ، وأولئك الابرار الفائزون بفضلهم ، ومن يكن منا ينتظر فهو من سلفنا القاضين نحبهم ، السابقين باحسان . فمن كان منكم يريد الله وثوابه فليسلك سبيل اصحابه واخوانه ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله مع المحسنين . (١)

وأقول :

رأيت فتية باعوا الاله نفوسهم

بجنات عدن عنده ونعيم

---

(١) أدب السياسة ٢٩٠/

خصائص خطب الخوارج :

ان ادب الخوارج كان اصدق صورة ادبية لمذهب دينيسياسي ، لذلك كان أدبهم هو الادب الاسلامي القوى الجديد على ما نوضحه :

(١) ـ قلنا ان الخوارج احتفظوا بطبعهم البدوى الذى صقله الاسلام وهذبه ولم تفسده مظاهر الحضارة وتقاليدها المترفة ، فمن صفات المسلم الحق العقيدة الدينية الخالصة لا يعرفون في سبيلها هوادة ولا لينا ولا تعد التقية شرعة أصيلة عندهم ، معنى ذلك انهم جمعوا قوة العقيدة وصدق الايمان ، والشعور ، وسلامة الخلق والطبع وهذه هي الأُسس الاولى والصفات المثالية لأى فن أدبى ، اضافة الى ذلك تأثرهم ببلاغة القرآن وحفظه ومدارسته فهم من الجيل الذى نشأ في ظل الاسلام واهتدى بهديه فقد سأل (١) الحجاج سبرة بن الجعد ـ من الخوارج ـ هل قرأت القرآن ؟ فقال سبرة : حفظته في صدرى . فاصبح جيلا اسلاميا في ثقافته ، وعقيدته ، وادبه ، ومنهجه السياسى فنتاجهم لا بد أن يكون من أدب الدعوة الاسلامية .

فهو جديد في معانيه ، آرائه وبراهينه اسلامية لا تمت الى الجاهلية بسبب .

---

(١) مروج الذهب ١٣٨/٣ ، ادب السياسة في العصر الأُموى

(٢) ـ وأدبهم جديد في غايته ، فهو جهاد في سبيل الحكم الصالح لا أن تكون الخلافة في قريش كما يرى الزبيريون ، ولا في بني هاشم كما تقول الشيعة ، ولا لبني أمية كما يدعي الأمويون ، بل يطلبون نظاما سليما يدفع الظلم عن الناس ، ولا من أجل السيادة وبسط السلطان .

يقول المستورد بن علقمة :

يا معشر المسلمين . اني والله ما خرجت ألتمس الدنيا ولا ذكرها ولا فخرها ولا البقاء ، وما أحب أنها لي بحذافيرها ، وأضعاف ما يتنافس فيها بقبال (١) نعلي ، وما خرجت الا التماس الشهادة ، وأن يهديني الله الى الكرامة بهوان أهل الضلالة ... اخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . (٢)

فهم لم يكونوا ذوي مآرب شخصية يريدون الحصول عليها .

(٣) ـ جديد في أساليبه الدقيقة ، التي تعتمد على صياغة القرآن يقول قطري (٣) :

" أما بعد فاني احذركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ، ضرارة ، خوانة غدارة ، حائلة زائلة ،

---

(١) قبال النعل : زمام بين الاصبع الوسطى وما يليها

(٢) الخطابة في عصر صدر الاسلام ج ٢ / ١٩٨

(٣) البيان والتبيين ج٢/١٢٦

نافدة بائدة ، أكالة غوالة بدالة نقالة ، لا تعدو اذ هي تناهت الى امنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها ، أن تكون كما قال تعالى ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾

(٤) — في أدبهم تحققت الوحدة الفنية الى حد بعيد فالموضوع واحد والمعاني من واد واحد ، والافكار مرتبة والسياق جزل رصين كما في خطبة ابي حمزة الشارى بدأها بالحمد والثناء ، ثم جهر بالموضوع المقصود في ايجاز ، وعرض لا عمال رسول الله وخلفائه من بعده تمهيدا للحملة على بني أمية وبعدد مساوئ معاوية ويزيد ، ثم انتقل الى الشيعة واخيرا عاد ودافع عن انصاره واصحابه من الشباب وهو الموضوع الذى من اجله كانت الخطبة وذكر صفاتهم ومناقبهم .

(٥) — في خطبهم لم نجد أي تعصب جنسي أو قبلي فقد أذيب هذا في عقيدتهم المذهبية فكان قولهم نتاجا لعقيدتهم ، يستوحونها ليقولوا ويأخذون من الحياة مادة لفتهم يستهينون بالحياة الفانية وينشدون الاخرة والحنين الى الجنة ويكثرون الانين خوفا من النار والعذاب .

يقول ابوحمزة الشارى في خطبته :

كلما مرّ احدهم بآية من آيات الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ....

مستقبلون ذلك في جنب الله موفون بعهد الله ، منجزون لوعـــد اللـــه .

لذن ادبهم وسيلة لخدمة مذهبهم وليس غاية ، كان ينشأ عند الحاجة اليه .

(٦) - ان خطب الخوارج فيها الفصاحة العربية الاصيلة ، والبراعة البيانية مما يدل على الالمام باللغة ومفرداتها ، وقد وصف بعضهم بلاغة عبيدة بن هلال اليشكرى حين ناظر عبدالله بن الزبير فقال " ما سمعت ناطقا قط ينطق كان أبلغ ولا أصوب قولا منه ، ان كان ليجمع القول الكثير في المعنى الخطير في اللفظ اليسير (١) ومن اشهر علمائهم باللغة والأدب ابو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو من اوسع اهل البصرة علما باللغة والأدب والنحو واخبار العرب .

ولا ننسى ان المجاهدين كانوا هم الزعماء اصحاب المذهب فيهم بيان ولسن فكان أدبهم يصدر عن نفوس صادقة وعاطفة حارة ويروى في البيان عن بلاغة وبسالة الخوارج ان الحجاج قال لرجل (٢) من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه ، قال : أتقرأه ظاهرا ؟ ، قال : أقرأه وأنا أنظر اليه ، قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه ، قال : ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك قال : لعنه الله ولعنك معه . قال : انك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقى الله بعملي وتلقاه بدمي .

---

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي / ص ٢٧٢

(٢) البيان والتبيين ج٢/ ص ١٤٨

(٧) — لاحظنا ان جميع الخطب تتشابه في موضوعها الحث على الجهاد والزهد في الدنيا وبيان صفة الشهداء للترغيب في ذلك وكره بني أمية ولعل سببه هو انصهار الادب في عقيدتهم وتمسكهم بها فخضعوا لسلطانها واصبحت مدرستهم الفنية القرآن الكريم لذلك اتحدت موضوعاتهم وتأثروا بشعور مشترك واحد .

(٨) — كان خطباء الخوارج يمتازون بابراز الافكار وتوضيح الصور التي تلائم هذا المذهب كقول ابي حمزة في التشبيه :

" اختضبت محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى "

أصبح في الاسلام خضاب الرجال الدماء ، وهذا بعيد عن قول القدامى في التشبيه ويقول " واذا مر احدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين اذنيه " .

ويقول الطرماح في وصفهم :

يرجعون الحنين آونة	وان علا ساعة بينهم شهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة	تكاد عنها الصدور تنفلق
قوم شحاح على اعتقادهم	بالفوز مما يخاف قد وثقوا (١)

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ / ١٣٨ / تاريخ الشعر السياسي / احمد الشائب / ص ٧٨

الفصل الثالث

الأمويون

وهم ينسبون الى امية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو عظيم من عظماء قريش في الجاهلية . له نزاع طويل مع عمه هاشم بن عبد مناف ، وكان لكل واحد منهما نصيب من الشرف ، فاللواء في بني أمية ، والسقاية في بني هاشم حتى جاء الاسلام .

هاتان الاسرتان ، امتازت كل منهما بطابع غلب عليها منذ الجاهلية ، وظهر في سلوكها السياسي في عهد الاسلام . فالامويون أهل حصافة وتدبر ، والهاشميون رجال الخير والقوة .

فلما جاء الاسلام بالرسالة السماوية الخالدة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم شق ذلك على الأمويين وخاصة على أبي سفيان بن حرب بن أمية و ناصبوا العداء لرسول الله ورأوا في رسالته نباهة هاشمية .

وتوالت الاحداث على مكة والمدينة ، واسلم بعض القرشيين وهم النفر الذين هاجروا الى المدينة واسلم ابو سفيان متأخرا عام الفتح .

وهل يستوي الذين اسلموا قبل الفتح والذين اسلموا بعده ، حين ما ارادوا أن يطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ودخلت بقية القبائل في الدين الاسلامي وخضعت لهذه الدولة الناشئة .

ويلقى الرسول ربه والامة العربية كتلة واحدة لا عصبية الا عصبية الدين . وكان عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثالا للحكم الصحيح العادل لأنهما أخذا على الفتن والدسائس والاطماع

كل سبيل .

وحين اختير عثمان بن عفان رضى الله عنه انقسم المسلمون الى امويين وهاشميين . فقد اعتبر الامويون خلافته نصرا سياسيا انتظروه زمنا طويلا ، ففى مروج الذهب أن أبا سفيان بن صخر بن حرب دخل دار عثمان بن عفان عقب بيعته ومعه بنو أمية ، فقال ابو سفيان - وكان قد عمى - :

أفيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا قال : " يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذى يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة فانتهره عثمان وساءه ما قال وبلغ ذلك المهاجرين والانصار .

واذا صح ما يروى من حرص ابى سفيان على أن تكون خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى او لا بن عباس فان الامويين لم ينسوا رياسة قريش ، وان لم يطلبوها مباشرة .

ولما قتل عثمان رضى الله عنه ، وخشيت بنو أمية أن يخرج الأمر من ايديهم الى بنى هاشم ، استغلوا مصرعه فقام معاوية بالشام يطالب بدم عثمان ، ويحرضون اتباعه والسيدة عائشة الى وقعة الجمل التي خلص منها على بن ابي طالب وارسلها معززة مكرمة مع بنيه .

ولكن سياسة معاوية وحنكته والمنافسة الاموية الهاشمية منذ الجاهلية ، والاهواء والمطامع السياسية وابتغاء المجد الجديد كل هذه الأمور تبلورت في المكر والخداع يوم صفين ، بين من أراد ان يكون للأمة كلها ، ومن أراد ان تكون الأمة له ويستغل التحكيم

مستعينا بعمرو بن العاص الذى رماهم بثالثة الاثافى وخدع ابا موسى الأشعرى الذى اقامه الامام على نيابة عنه في التحكيم عن نفسه ، فخرج جند عليّ عليه وتمردوا لهذه الخدع والاباطيل التي إلجأ اليها معاوية والتي لا يقرها وازع من خلق أو دين . وحمل الأمويون عليا دم عثمان ودعوة الناس للأخذ بهذا الثأر وما كان من رفعهم قميص عثمان على المنبر ملطخا بدمه واصابع زوجه نائلة معلقة به فراح الناس يتباكون حوله عاما كاملا .

كل هذا لاشعال الفتن واثارة القلاقل على عليّ رضى الله عنه وهذا ظلم واعتداء ، لانهم ذهبت من نفوسهم حرمة الدين ، ونسوا اوامر الاسلام ، وذاقوا لذة الثروة ، وتعودوا السيادة ، فاتسعت مطامعهم وأثمرت مساعى معاوية عندهم ، فأعطى عمرو بن العاص مصر طعمة له طول حياته فحارب معه في صفين ، وكان في الملمات والمحن ركنه الركين . (١)

وختم الصراع بين علي ومعاوية بمقتل على رضى الله عنه وتنازل الحسن لانه رأى أن لا طاقة له اليوم بمعاوية وجنوده .

وعقد صلحا تنازل فيه الحسن عن الخلافة على أن يكون الأمر من بعده شورى يولى المسلمون عليهم من يشاؤون .

وهكذا تم الأمر لمعاوية واستقر الملك في بنى أمية ، وغلبت سياستهم شجاعة بني هاشم ، وصار الأمر كله لمعاوية وأخذ يجد في اقرار الملك في بيته ، واصبحوا سادة العرب ودخل معاوية

---

(١) العقد الفريد ج ١ / ص ٢٦٨

الكوفة عام (٤١هـ) فاخذت له هناك البيعة بحضور الحسن والحسين واجتمع الناس عليها فسمى هذا العام عام الجماعة .

وروى ابوبكر بن ابي شيبة قال وفد الحسن بن على رضى الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة فقال له معاوية : والله لاحبونك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك ولا أجيز بها احدا بعدك فأمر له بمائة ألف .

وهكذا كان معاوية بن ابي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية أول خلفاء الدولة الأموية .

وقدم معاوية المدينة عام الجماعة فتلقاه رجال من الانصار فقالوا : الحمد لله الذى أعز نصرك وأعلى امرك فما رد عليهم جوابا حتى دخل المدينة وقصد المسجد ، وعلا المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

" أما بعد فانى ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ولكننى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ، ولقد رضيت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات(١) عثمان فأبت على " فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ، فان لم تجدونى خيركم ، فانى خيرلكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له وان لم يكن منكم الا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر(٢) أذنى ، وتحت قدمى ، وان لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فان أتاكم من خير فاقبلوه ، فان السيل اذا جاء يثرى ،

---

(١) سنيات : سنية مصغر سنه ، والمراد حكم عثمان

(٢) دبر : أى لم يصغ اليه .

واذا قيل أغنى ، واياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة • (١)

المشرح والتعليق :

ارتقى معاوية عرش الخلافة على أسنة الرماح وحد السيف ، والناس له كارهون ، فما جاش في صدره قذفه على لسانه ففي خطبته يقول للخاصة والعامة " اني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة " •

فليس لاحد منهم فضل ، وقد قاتل ليفوز بالامارة ويعيد الشرف للبيت الأموي ثانية فأين هذا القول من قول ابي بكر الصديق رضي الله عنه :

" أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم " / أي انتم اخترتموني ولم أسع اليها •

ومعاوية يقول : فان لم تجدوني خيركم فاني خيركم ولاية ولم تعجبه سياسة ابي بكر في قوله : " ان رأيتموني على حق فأعينوني" ولا سياسة عمر وشدته ، ولا لين عثمان وتسامحه ، وانما هو يعلن للملأ سياسته وأسلوبه في الحكم كيف يكون •

سوف يسوسهم باسلوب جديد يناسب الظروف التي يعيشها فسياسته اخذ وعطاء وتقوم على الحسنى ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وأنه سيعفو عن كثير ، ليثوب الضال ويكف الباغي وأنه لن يحمل السيف على من لا سيف له ، وان كانت عداوته بالقول

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ٢ / ١٨٣ ـ العقد الفريد ج٢/ ١٣٩

لان فلتات اللسان تنفيس عن النفس وهو لا يقيم لها وزنا ، ولا يعيرها اهتماما وذكرا .

وختم خطبته بانه ان شاء الله قادر على استيفاء الحقوق لاصحابها ولم يجعلها عهدا على نفسه كما قال ابو بكر للمسلمين " الضعيف عندي قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه . أما معاوية فنصحهم ان يقبلوها على أية حال ، فالغيث أوله قطرة ثم ينهمر بغزارة ، وحذرهم من الفتنة ، فهي تقبل بالويل والثبور وتدبر بعظائم الأمور .

وساسته مداراه فهو أخذها كرها ، وهذا يخالف مبادىء الخلافة الاسلامية وفي النفوس منه حقدا . وحذرهم من الفتنة فهي عمياء خبط عشواء خطرها جسيم وأمرها عظيم .

بلاغته :

كان معاوية معروفا بالاحسان في القول ، والقدرة على اعتلاء صهوات المنابر ، وامتلاك زمام البيان . قال طحلاء بمدحه بالجهارة ، وجودة الخطابة :

ركوب المنابر وثابها
معن بخطبته مجهر (١)
تريخ اليه هوادى الكلا
م اذا ضل خطبته المهذر (٢) (٣)

---

(١) معن : معترض ، من عن : أى ظهر وأعرض
(٢) تريخ اليه : تميل . هوادى : اعناق . المهذر : الكثير الهذيان
(٣) البيان والتبيين ١ / ١١٩ .

فالاسلوب يناسب مقتضى الحال فنراه يؤكد في مجال الشك والانكار بالقسم " انى والله ما وليتها بمحبة منكم " ويراعى اللفظ المترجم للمعنى وقد كانت خطابته القوية أعفته احيانا من الاحتكام الى السيف ثم حلل لماذا لم يجد بين صفحات تاريخ الخلفاء الراشدين سياسة تصلح لهذه الأمة ، لأنها نشأت على الشغب والتناحر واضمر في مقام الاضمار " ما وليتها ".

وآخر قوله في الخطبة اسلوب التحذير الذى يتضمن التهديد.

والخطبة في جملتها تبين ما صار اليه الأمر او العلاقة بين الراعى والرعية.

والاسلوب واضح لم يخبأ وراء اللفظ معنى اراد أن يستره ، بعيدا عن الزخارف اللفظية الا ما جاء دون قصد ،(ولكم فيه منفعة مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة).

وكان من اسباب الخطبة عند معاوية ، أن عاطفتها القوية كانت تشع في خطبه وتظل على قوتها وصدقها ما استمرت الخطبة.

هذا هو معاوية وهذا هو موقفه من الرعية ، لم يشأ ان يقبل التهنئة على علاتها ، ولا أن يقابل نفاق قريش بنفاق ، بل كان صريحا جريئا حينما أعلنها في قوة ووضوح أنه أخذ الخلافة عنوة واقتدارا ، أليس في يده سيوف الشام قحطانية وعدنانية ؟ ...

وكان معاوية لبيبا حليما جيد السياسة قال معاوية لقريش : الا اخبركم عنى وعنكم ؟ قالوا بلى ، قال : فأنا أطير اذا وقعتم وأقع اذا طرتم ، ولو وافق طيرانى طيرانكم سقطنا جميعا .(١)

---

(١) العقد الفريد جـ٥/ص١٠٦

وحلمه كان أغلب من شدته ، كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا ويكرم مثواهم ، و يقضي حوائجهم وهم يغلظون له في الحديث . وكان يترضى الأنصار ، ويقسو على الخوارج ، و يلين مع آل هاشم ، وقد رأينا في باب الشيعة كيف استقدم الزرقاء بنت عدى ، وهي شيعية ، معززة مكرمة عكس ابنه يزيد ومعاملته مع الحسين واخته — ونشير الى شيء من حلمه مع الأنصار .

بعث الى رجل من الأنصار بخمسمائة دينار . فاستقلها الانصارى وقال لابنه خذها وامض الى معاوية . فاضرب بها وجهه . وردها عليه وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك . فجاء ابنه الى معاوية ومعه الدراهم فقال : يا أمير المؤمنين ، ان أبي فيه حدة وسرعة ، وقد أمرني بكيت وكيت ، وأقسم علي ، وما أقدر على مخالفته ، فوضع معاوية يده على وجهه وقال : افعل ما أمرك ابوك ، وارفق بعمك فاستحيا الصبى ، ورمى بالدراهم ، وحملها الى الانصارى .

وبلغ الخبر يزيد ابنه فدخل على معاوية غضبان وقال : لقد افرطت في الحلم ، حتى خفت أن يعد ذلك منك ضعفا وجبنا ، فقال معاوية : أى بني : أنه لا يكون مع الحلم ندامه ولا مذمة ، فامض لشأنك ، ودعني وشأني ، وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالم الاسلامي وخضع له من ابناء المهاجرين والانصار كل من يعتقد أنه اولى منه بالخلافة . (١)

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٤١ هـ دعاه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقى / ص ٧٧

" أما بعد فان لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا (١) وقد قال المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا

وما علم الانسان الا ليعلما

وقد يجزى (٢) الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت ايصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادا على بصرك بما يرضيني ، ويسعد سلطاني ، وتصلح به رعيتي ولست تاركا ايصاءك بخصلة لا تتحم (٣) عن شتم عليّ وذمه والترّحم على عثمان ، والاستغفار له ، والعيب على أصحاب علي ،والاقصاء لهم وترك الاستماع منهم ، وباطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه والادناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة " قد جربت وجربت ، وعملت قبلك لغيرك ، فلم يذمم بي دفع ولا رفع ، ولا وضع ، فستبلو (٤) فتحمد أوتذم " قال نحمد ان شاء الله. (٥)

---

(١) من امثال العرب المشهورة " ان العصا قرعت لذى الحلم " وهو مثل يضرب لمن اذا نبه انتبه واول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدواني وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ... وذكروا أن عامر ابن الظرب كان أحد حكام العرب المشهورين : لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه انه قد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فاذا رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره ،فاقرعوا لي المجن بالعصا وقال المتلمس يريده البيت السابق.

(٢) يجزى :أى يغنى يقال أجزأت عنك مجزأ فلان : أى اغنيت عنك مغناه.

(٣) لا تتحم :لا تمتنع (٤) فستبلوا : اى تختبر

(٥) تاريخ الطبرى ج٦/١٤١ / جمهرة خطب العرب ج٢ / ١٨٤

التحليل والتعليق :

كان خلفاء بنى أمية يجيدون الخطابة ولا سيما معاوية فهو أخطب الناس قائما وقاعدا وعلى منبر وفي خطب النكاح (١) .

لقد جرى خطباء العرب منذ الجاهلية أن يأتوا بأبيات في خطبهم دعما للفكرة وتوضيحا لها - ووحدة البيت في القصيدة العربية هيأ لهم ذلك - أوتصويرا لحال من الأحوال . وهكذا فعل معاوية بأن نبه المغيرة بوجوب السمع والطاعة فيما يأمره وهو شتم علي رضى الله عنه وقد مضى الى ربه وتحقير اصحابه فهذا مثل للسياسة الجائرة والتعصب الحزبي الذى يأباه الدين ثم محاباة فريق آخر وادنائه والاستماع لهم فهذا مجاهرة بالظلم وقد قال صلى الله عليه وسلم " كل أمتى معافى الا المجاهرون "

فبلاغته في الاداء الخطابي ، لان الخطيب ممتاز وخطبته مستوفية شروط الاجادة والاتقان . ثم اعتنى باستهلال خطبته وبين أنه يريد من المغيرة ان يجعل المعاملة صورتين بظلم فريق واقصائه ، واطراء عثمان وشيعته .

واللفظ على قدر المعنى .

ومن ثم أدى هذا الطلب الى جعل جماعة من المنافقين يلعنون عليا رضى الله عنه .

يروى الشيباني عن أبي الجندب الكندى عن أبيه ، أن معاوية بن أبي سفيان بينما هو جالس وعنده وجوه الناس ، اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا ، فكان آخر كلامه أن لعن عليا ، فأطرق

---

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ص ٦٨ ٢

الناس وتكلم الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين ، ان هذا القائل ما قال آنفا لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ودع عنك عليا ، فقد لقي ربه ، وأفرد في قبره ، وخلا بعمله ، وكان والله — ما علمنا — المبرز بسبقه ، الطاهر خلقه ، الميمون نقيبته ، العظيم مصيبته . فقال له معاوية :

يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى ، وقلت ما ترى ! وايم الله . لتصعدن المنبر فتلعنه طوعا أو كرها .

فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين ان تعفني خير لك ، وان تجبرني على ذلك فوالله لا تجري فيه شفتاي بذلك .

قال : قم فاصعد المنبر .

قال الأحنف : أما والله مع ذلك لا نصفنك في القول والفعل . قال : وما أنت قائل ان انصفتني ؟

قال : أصعد المنبر فاحمد الله بما هو أهله ، وأصل على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقول : أيها الناس ، ان أمير المؤمنين معاوية أمرني أن العن عليا وان عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا ، وادعى كل واحد منهما أنه بغي عليه وعلى فئته ، فان دعوت فأمنوا رحمكم الله .

ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعنا كبيرا يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفا ولو كان فيه ذهاب نفسي ! (١)

---

(١) رياض الصالحين للامام محي الدين /ص ١٦٥

وانني اقول لمعاوية قول النبي صلى الله عليه وسلم حين قال " أما بعد ألا أيها الناس فانما انا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين (١) أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ... ثم قال " وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي " .

ويقول الله تعالى في كتابه الحكيم * انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * (٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم " لا تسبوا اصحابي فلو ان احدكم أنفق ملىء أحد ذهبا ما بلغ مد" أحدهم أو نصفه .

وهكذا فقد استطاع معاوية ان يستأثر بالخلافة ، ليقرها في البيت الأموي . والحق ان الخلافة منذ آلت اليه اتخذ لها طابعا مغايرا عن طابع الخلفاء الراشدين فقد اصبحت ملكية في مظهرها ونظامها ، ولا يميزها عن مظاهر مملكتي الفرس والروم الا انضواؤها تحت ظل الاسلام وأحكامه .

ولم يمض وقت طويل حتى شرع معاوية يوطد الملك لابنه يزيد ويعهد اليه بولاية العهد ، خوفا من سفك الدماء مجددا كما حدث في عهد عثمان .

ويروى في الأمالي ان معاوية أقام الخطباء لبيعة يزيد فقامت المعدّية فشققوا الكلام . ثم قام رجل من حمير فقال لسنا الى رغاء هذه الجمال ، عليهم تشقيق المقال وعلينا صدق الصّيال ، أما واللّه انّا لصبر

---

(١) ثقلين : سميا ثقلين لعظمهما وكبر شأنهما .
(٢) سورة الاحزاب اية / ٣٣

تحت البوارق ، مراقيل في ظل الخوافق لا نسأم الضّراس ، ولا نشمئز من المراس ، وان واحدنا لألف ، وألفنا كهف فمن أبدى لنا صفحته حطنا علاوته ، ثم قام رجل من ذى الكلاع فأشار الى معاوية فقال : هذا أمير المؤمنين فان مات فهذا — وأشار الى يزيد — فمن أبى فهذا — وأشار الى السيف — ثم قال :

معاوية الخليفة لا تمارى

فان تهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلا

تحكم في مفارقه الحديد (١)

فأعجب ذلك معاوية وقال له : اجلس فانك سيد الخطباء . (٢)

ويذكر المؤرخون ان معاوية استجاب لمشورة المغيرة بن شعبة والى الكوفة في أن يأخذ البيعة ليزيد ، وسواء اكان المغيرة صاحب الفكرة أم بايحاء من معاوية فانه سرعان ما كتب الى مروان بن الحكم والى المدينة يقول : " انى كبرت سنى ودقّ عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، ورأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى . (٣)

فخطبهم مروان وحضهم على الطاعة وحذرهم الفتنة ودعاهم الى بيعة يزيد فأبوا ، فكتب مروان الى معاوية بذلك ، فخرج معاوية الى المدينة في ألف فلما قرب منها تلقاه الناس ، فلما نظر الى الحسين قال : مرحبا بسيد شباب المسلمين قرّبوا دابة لأبى عبدالله .

---

(١) الامالى لابى على القالي ج ١ / ١٥٩

(٢) جمهرة خطب العرب ج ٢ / ٢٣٦

(٣) ابن الاثير ٣ / ١٩٩

وقال لعبد الرحمن بن ابي بكر : مرحبا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق • وقال لابن عمر : مرحبا بصاحب رسول الله وابن الفاروق •

وقال لابن الزبير : مرحبا بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، ودعا لهم بدواب فحملهم عليها ، وخرج حتى أتى مكة فقضى حجه •

ولما أراد الشخوص أمر باثقاله فقدمت ، وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة وأرسل الى الحسين وعبدالرحمن بن ابي بكر وابن عمر وابن الزبير ، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه • فقال : على ان لا تخالفوني • قالوا : لك ذلك •

ثم أتوا معاوية ، فرحب بهم وقال لهم قد علمتم نظري لكم ، وتعطفي عليكم ، وصلتي ارحامكم ، ويزيد اخوكم وابن عمكم ، وانما اردت ان اقدمه باسم الخلافة وتكونوا انتم تأمرون وتنهون : فسكتوا ، وتكلم ابن الزبير ، فقال : نخيرك بين احدى ثلاث ، أيها اخذت فهي لك رغبة وفيها خيار : ان شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف (أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر) ، فدع هذا الامر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وان شئت فما صنع أبو بكر ، عهد الى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأدنين ، من كان لها أهلا ، وان شئت فما صنع عمر ، صيرها الى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا • قال معاوية : هل غير هذا ؟

قال : لا

ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟

قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير •

فقال معاوية : انى اتقدم اليكم وقد أعذر من أنذر انى قائل مقالة ، فأقسم بالله لئن رد علىّ رجل منكم في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمته حتى يضرب رأسه فلا ينظر امرؤ منكم الا الى نفسه ، ولا يبقى الا عليها .

وأمر ان يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فان تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه حتى رقى المنبر ، وحف به اهل الشام واجتمع الناس ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه :

انا وجدنا احاديث الناس ذات عوار قالوا : ان حسينا وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا نبرم امرا دونهم ، ولا نقضى امرا الا عن مشورتهم ، وانى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا واطاعوا . فقال اهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ ائذن لنا فنضرب اعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية . فقال معاوية : سبحان الله ما أسرع الناس الى قريش بالشر ، وأحلى دماء هم عنده ، أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد . ودعا الناس الى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى .

فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم !

فقالوا : لم نفعل .

قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا انكرتم .

قالوا : خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم . (١)

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ص ١١٥

فهذا معاوية اذا لم يجده الاعتصام بدهائه وسياسته ، أو قصر به حلمه عن غايته لجأ الى الحزم والعزم والعنف في اتخاذ الأمر .

ويروى ابوبكر رحمه الله عن العتبي قال : لما عقد البيعة معاوية لابنه يزيد قام الناس يخطبون ، فقال معاوية لعمرو بن سعيد : قم يا أبا امية ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان يزيد بن معاوية أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، ان استضفتم الى حلمه وتحلمه ، وان احتجتم الى رأيه أرشدكم ، وان افتقرتم الى ذات يده أغناكم ، جذع قارح سوبق فسبق ، ووحد فمجد ، وقورع ففاز سهمه ، فهو خلف امير المؤمنين ، ولا خلف منه . فقال معاوية : أوسعت يا أبا اميّة فاجلس . (١)

واذا فقد اطمأن معاوية بعض الشيء الى استقرار ملكه حيث تمت البيعة ليزيد — وان كانت سببا في انقسام المسلمين الى فريقين معارض وراض ولما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب ، دعا مسلم بن عقبة المرى ، والضحاك ابن قيس الفهرى فقال :

ابلغا عنى يزيد وقولا له :

انظر أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك (٢) فمن أتاك منهم فاكرمه ، ومن قعد عنك فتعهده ، وانظر الى اهل العراق ، فان سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم ، فان عزل عامل منهم أهون عليك من سل" مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم ، ثم انظر الى أهل

---

(١) الامالى ٢/٦٩

(٢) عترتك : عترة المرء عشيرته .

الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار (١) فان رابك من عدوك ريب فأرمهم بهم ، فان اظفرك الله بهم فاردد اهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا في/بلادهم غير فيتأدبوا بغير أدبهم ولست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وحسين بن علي ، فأما عبد الله بن عمر فقد وقذه (٢) الورع ، وأما الحسين فاني أرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل اخاه ، وأما ابن الزبير فانه خب ضب (٣) فان ظفرت به فقطعه اربا اربا ، (٤)

التعليق :

فهذا القول عند معاوية أثمن ميراث يتركه لابنه يزيد ، وكنزه الثمين ، وخلاصة فكره ورأيه الذي يهتدي به على مر السنين ، وهذا معاوية الذي أحب الدنيا وسعى لها وعلق بالجاه والملك والسلطان ففي غمرات الشقاق وطوفان الصراع والحوادث والفتن ، واضطراب في السياسة اوصى معاوية ابنه بهذه الوصية وقسم الناس الى اولياء واعداء ، وعلمه كيف يضرب بعضهم ببعض ، وكيف يرصد الثواب والعقاب لجماعة دون اخرى ولم يأمره فيهم بالعدل ولا بتقوى الله ولا بشيء يمت الى الاسلام بصلة وانما يقول له : فان ظفرت به فقطعه اربا اربا ، ونسى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع " أيها الناس ، انما المؤمنون اخوه ، ولا

---

(١) الشعار : الثوب يلي الجسد ، والدثاره ما يلبس فوق الشعار

(٢) وقذه : صرعه وغلبه

(٣) الخب بفتح الخاء : المخادع ، والضب حيوان برى وبه يضرب المثل في الخداع

(٤) اربا : عضوا ، عضوا ، الامامة والسياسة ١/ ١٣٩

يحل لامرئ مال أخيه الا عن طيب نفسه ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ! فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض ، فانى قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا (بعده) كتاب الله وأهل بيتى ألا هل بلغت اللهم فاشهد (١)

ونص كتاب السيدة عائشة : أما بعد فانه من يعمل بما يسخط الله يصر حامده ذاما له. (٢)

واقول : فمثلك يا معاوية كمن قال المسيح عليه السلام عجبا لهم ... ولا تعملون للآخرة وانتم ترزقون فيها الا بالعمل. (٣)

وهذه الوصية صورة من صور السياسة الأموية ، وما كان يتوجسه الخلفاء من قبلهم من شر وخوف ، فنظروا الى انفسهم قبل ان ينظروا الى الرعية ولكى تتضح الصورة اكثر أقرن واذكر وصية عمر بن الخطاب للخليفة بعده (٤) لنرى فوارق السياسة والحكم في العصرين قال عمر :

أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا ان تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالانصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك باهل الامصار خيرا ، فانهم رد‌ء العدو ، وجباة الفيء لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم ، وأوصيك بالعدل في الرعية ،

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٢٦

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٧٦

(٤) ورد ذكرها في بلاغة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فان ذلك باذن الله سلامة لقلبك وحط لوزرك ، وخير في عاقبة امرك ، حتى تفضي من ذلك الى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تشتد في امر الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ثم اركب الحق وخض اليه الغمرات ....

أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمرهم (١) في البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الاغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .

هذه وصيتي اياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام . (٢)

هذه الوصية الشاملة ، ذات الحكمة البالغة نستشف منها صورة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونرى على ضوئها الفاروق رضي الله عنه كيف يستضيء بنور القرآن ويهتدي بهديه .

فمثلك يا عمر في وصيته مثل الذين وصفهم المسيح عليه السلام قال :

﴿ ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . الذين

---

(١) التجمير : التجميع ، و تجمير الجند ، اطالة لبثهم في المعسكرات النائية عن ذويهم .

(٢) العقد الفريد

نظروا الى باطن الدنيا اذ نظر الناس الى ظاهرها ، والى اجلها اذا نظروا الى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا ان يميتهم وتركوا ما علموا ان سيتركهم هم أعداء لما سالم الناس وسلم لما عادى الناس لهم خبر وعندهم الخبر المعجب بهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الهدى وبه عملوا لا يرون امانا دون ما يرجون ولا خوفا دون ما يحذرون . (١)

فالخلق الحسن والعدل والرحمة تشع من صيته وهو يقول :

" انشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ...

فما أبعد الفرق بين الوصيتين ، وأعمق الهوة بين الخليفتين ، لكأن بينهما بحرا لا يركب متنه ، ولا يخاض لجه ، ولا يشق عبابه ، ولكأن ما بينهما من المفارقة هو شبه النقيض بالنقيض .

خطبته وقد أحس دنو الأجل :

سار معاوية في سياسته على منهج واحد ، الا انه في هذه الخطبة يختلف قالوا (٢) : لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك . فقال : ويحك ولم ؟ قال : لا أدرى . قال : فوالله مالهم بعدى الا الذى يسوءهم . وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه وأوجز ، ثم قال :

أيها الناس ، انا قد اصبحنا في دهر عنود (٣) وزمن

---

(١) العقد الفريد

(٢) البيان والتبيين ٢/٥٩ ، وابن ابى الحديد (١ : ١٧٢) نسبت على رضى الله عنه

(٣) العنود : الجائر الطاغي

شديد ، يعدّ فيه المحسن مسيئا ، ويزداد فيه الظالم عتوّا ، ولا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا .
فالناس على أربعة اصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض الا مهانة نفسه ، وكلال حدّه ، ونضيض(١) وفره ، ومنهم المصلت لسيفه المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بسره ، قد أشرط لذلك نفسه ،(٢)

وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه او مقنب(٣) يقوده ، أو منبر يفرعه(٤) ولبئس المتجر ان تراها لنفسك ثمنا ومما لك عند الله عوضا • ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الاخرة ، ولا يطلب الاخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه وقارب من خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من اقعده عن طلب الملك ضؤوله نفسه ، وانقطاع من سببه فقصرت به الحال عن أمله ، فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزّهاد ، وليس في ذلك مراح ولا مغدى • وبقى رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد ناد(٤) وخائف منقمع ، وساكت مكعوم(٥) وداع مخلص ، وموجع

---

(١) نضيض : القليل ، الوفرة المال
(٢) اشرط نفسه للأمر : أعدها وهيأها
(٣) الجماعة من الخيل بين الثلاثين والاربعين أوفوق ذلك ، يفرعه : يعلوه •
(٤) ناد : النافر الذاهب على وجهه
(٥) مكعوم : مشدود الفم حتى لا يستطيع تحريكه

ثكالى ، قد اخملتهم التقية وشملتهم الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم ضامزة (١) وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذلّوا ، وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيا في عيونكم أصغر من حثالة القرظ (٢) وقراضة الجلمين (٣) ، واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل ان يتعظ بكم من يأتي بعدكم . فارفضوها ذميمة فانها رفضت من كان أشغف بها منكم .

التعليق :

يقول الجاحظ تعقيبا على الخطبة " وفي هذه الخطبة — أبقاك الله — ضروب من العجب منها ان هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من اجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس وفي الاخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والاذلال ومن التقية والخوف — أشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذهب العباد ، وانما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الاخبار وبكثير منهم . (٤)

واننى أرى ان حجة الجاحظ بأن هذا القول أشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ، هو الصواب وفصل الخطاب .

---

(١) ضامزة : ساكتة من قولهم ضمز البعير : أمسك جرته في فمه

(٢) القرظ : ورق السلم : أو ثمر السنط يستعمل في الدبغ

(٣) قراضة الجلمين : ما يسقط عند استعمال المقراض بجزبه الصوف ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ٦١/٢

واذا سلمنا بأنها لمعاوية فلم يخبرهم بما كان يجول في خاطره لانهم يستبشرون بموته فأراد أن تكون تذكيرا لهم وردا على ظنونهم حين عرض لهم اصناف — وهي حصيلة تجاربه وخبرته في الحياة — واحوالهم ، ولسان حاله يقول : رب مسرور بموتنا يجد في غده شرا منا .

ويروى في العقد (١) لما هلك معاوية خرج الضحاك بن قيس الفهري وعلى عاتقه ثياب حتى وقف الى جانب المنبر ثم قال :

أيها الناس ان معاوية كان الف العرب وملكها ، فأطفأ الله به الفتنة وأحيا به السنة وهذه أكفانه ، ونحن مدرجوه ، ومخلّون بينه وبين ربه فمن أراد حضور صلاة الظهر فليحضره ، وصلى عليه الضحاك ثم قدم يزيد من يومه فلم يقدم أحدا على تعزيته حتى دخل عليه عبدالله بن همام السلولي فقال (٢) :

يا أمير المؤمنين . آجرك الله على الرزية ، وبارك في العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله على ما اعطيت واصبر على ما رزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت خلافة الله ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ، اذ قضى معاوية نحبه ، فغفر الله ذنبه ووليّت الرياسة فأعطيت السياسة فأوردك الله موارد السرور ووفقك لصالح الأمور وأنشد :

---

(١) العقد الفريد ٢/٦١

(٢) تهذيب الكامل ج ١ / ١٦

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة
واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا
لا رزء أصبح في الأقوام نعلمه
كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أصبحت والى أمر الناس كلهم
فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفى معاوية (١) الباقي لنا خلف
اذا نعيت ولا نسمع بمنعاكا (٢)

الشرح والتعليق :

هذا اول خليفة في الاسلام آل اليه الملك بالوراثة فقد شاءت ارادة الله ان يهنأ ويعزى في آن واحد ، والناس حيارى لا يدرون أيعزونه أم يهنئونه فجاء عبدالله بن همام السلولي وجمع بينهما في هذا المقام في صورة فنية مكتملة ، فالفقرة التي يعزى فيها يزيد حتى يستبد الحزن بالقلب تأتي الفرحة وتبدده كل ذلك بأسلوب يجمع بين الضدين بالمقابلة والطباق يقول :

(فقدت خليفة ومنحت خلافة الله) (فارقت جليلا ووهبت جزيلا)

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة
واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا

---

(١) معاوية : ابن يزيد

(٢) بمنعاكا : جملة دعائية وهو احتراس لطيف دعا اليه الحال والمقام

ويقال : ان عبدالله بن همام السلولي كان اول من فتح هذا الباب بهذا الاسلوب المزدوج الذي يجمع بين التهنئة والتعزية ، فمهده لغيره من الخطباء كعطاء بن أبي سيفي مع يزيد ، وغيلان بن مسلمة مع الوليد بن عبد الملك بن مروان . (١)

ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة ايام لا يخرج للناس ثم خرج وعليه اثر الحزن فصعد المنبر ، وأقبل الضحاك فجلس الى جانب المنبر ، وخاف عليه الحصر فقال له يزيد :

يا ضحاك أجئت تعلم بني عبد شمس الكلام ؟ ثم قام خطيبا فقال : (٢)

الحمد لله ما شاء صنع ، من شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . ان معاوية بن ابي سفيان كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من قبله ، وخيرا ممن يأتي بعده ، ولا أزكيه فقد صار الى ربه فان يعف عنه فبرحمته ، وان يعذبه فبذنبه ، وقد وليت بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ولا أنى عن طلب ، وعلى رسلكم ، اذا كره الله شيئا غيره ، واذا أراد شيئا يسره .

وكان يزيد فصيحا كريما شاعرا مفلقا قالوا بدئ الشعر بملك وختم بملك . (٣)

---

(١) روائع الأدب د. نبيه حجاب / ٢٠٢

(٢) العقد الفريد ج ٥ / ١١٦

(٣) اشارة الى امرئ القيس ، واليه / الفخري في الاداب السلطانية / ٨٤

بلاغة عبد الملك بن مروان

كان عبد الملك بن مروان لبيبا عاقلا عالما ملكا جبارا قوى الهيبة شديد السياسة حسن التدبير ، ومن آرائه ما أشار به ـ وهو صبي ـ على مسلم بن عقبة المرى ، حين ارسله يزيد بن معاوية لقتال اهل المدينة فوصلها وبنو أمية محاصرون بها ، ثم اخرجوا ، فلما لقيهم مسلم بن عقبة استشار عبد الملك بن مروان ، وكان حدثا ، فقال : له الرأى أن تسير بمن معك ، فاذا انتهيت الى أدنى نخلها نزلت ، فاستظل الناس في ظله وأكلوا من صفوه ، فاذا اصبحت مضيت وتركت المدينة على اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ، ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم ـ وقد طلعت الشمس عليهم ـ طلعت بين اكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، بل يصيب اهل المدينة أذاها ويرون من ائتلاف بيضكم ، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ، ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله . (١)

ان عصر عبد الملك بن مروان انشط عصور ملوك الأمويين في سبيل الملك وفيه اشتد الصراع بين الاحزاب فيأخذ كل حزب وضعه أولا . ويتبين سبيله ونهايته ثانيا ، وينتهج الخلفاء سياسة متباينة المناهج تبعا لشخصيات الملوك ثالثا . فأعد عبد الملك لهذا الصراع عدته فحارب الشيعة والزبيريين والخوارج ، وملك زمام الدولة بالحزم والقوة وقضى على الفتن والثورات الداخلية .

---

(١) الفخرى في الاداب السلطانية / ٨٩

خطبة عبد الملك بالكوفة بعد مقتل مصعب :

يقال حين أرسل يزيد بن معاوية الجيش لقتال اهل المدينة وغزو الكعبة امتعض عبد الملك من ذلك غاية الامتعاض ، وقال : ليت السماء انطبقت على الأرض : فلما صار خليفة فعل ذلك وأشد منه فأرسل الحجاج لحصار ابن الزبير وغزو مكة . وكان عبدالملك قبل الخلافة احد فقهاء المدينة وكان يسمى حمامة المسجد . لمداومته تلاوة القرآن ، فلما مات أبوه وبشر بالخلافة أطبق المصحف وقال (هذا فراق بيني وبينك) وتصدى لأمور الدنيا (١)

وجهز جيشا لقتال مصعب وودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فلما ودعها بكت فبكى جواريها لبكائها فقال عبد الملك : قاتل الله كثير عزة كأنه شاهد هذا حين قال :

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه
حصان عليها نظم درّ يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه
بكت فبكى مما شجاها قطينها
ولم يثنه يوم الصبابة بثها
غداة استهلت بالدموع شئونها
ولكن مضى ذو مرة متثبت
بسنّة حق واضح مستبينها (٢)

---

(١) الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية / ٨٩

(٢) الامالي لابي على القالي ١/١٣

ثم سار الى حرب مصعب فالتقيا بأرض دجيل وفيها قتل مصعب بن الزبير وسر عبد الملك وسجد لله شكرا واطمأنت به نفسه كما اطمأنت من قبل بمقتل المختار وزعماء التوابين فخطب وقال : (١)

بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال : ان الحرب صعبة مرة ، وان السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبنّاها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ولا تكلفونا اعمال المهاجرين الاولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شرّا ، ولن نزداد بعد الانذار اليكم والحجة عليكم الا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود بعد مثلها فليعد ، فانما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة (٢)

يصل بنار كريم غير غدّار

أنا النذير لكم من مجاهرة

كي لا ألام على نهي وانذار

فان عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا

أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار

لترجعن أحاديثا ملعنة

لهو المقيم ولهو المدلج الساري

---

(١) الخطابة في عصر صدر الاسلام / د . محمد طاهر درويش / ٢ / ١٩١

(٢) تره : اصلها وتره حذفت الواو وعوضت عنها التاء في اخرها مثل وعد : عدة

من كان في نفسه حوجاء يطلبها

عندى فانى له رهن باصحار [١]

أقيم عوجته ان كان ذا عوج

كما يقوم قدح النبعة البارى

وصاحب الوتر [٢] ليس الدهر مدركه

عندى وانى لدراك بأوتار

التعليق :

قال المبنى كان يقال معاوية أحلم وعبدالملك أحزم [٣] نعم ان الحزم هو أول أمر ينبغى ان يكون في الملك لتحصين مملكته وخطابته تشعرنا بالحزم والقوة وثقة القادر الذى يخوض غمار الحروب الصعبة المرة المذاق فقد عرفوها ولا زموها كالام فالصلة قوية بين الابناء وأمهم وزبنوها وزبنتهم وهم على استعداد تام بين لحظة واخرى فقد قفل راجعا الى دمشق حين خرج لقتال مصعب بن الزبير وعلم ان عمرا بن سعيد بن العاص استولى على دمشق فحاصره وتقاتلا ثم تصالحا على ان يكون الأمر لعمرو بعده ، وكتبا بذلك كتابا ، ولكن عبد الملك رأى أنه لا أمان له مع وجود عمرو " وأنه لا يجتمع فحلان في شراك فقتله [٤] متمثلا قول الشاعر :

---

(١) باصحار : اى بروز الى الصحراء فلا استتر عنه ولا امتنع فى الاماكن الحصينة

(٢) الوتر : الثأر

(٣) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافي / د٠ حسن ابراهيم / جا / ٢٩٩

(٤) البداية والنهاية / ٨/ ٣٠٧ ، ٣٠٨ ـ راجع قصة مقتله في العقد الفريد ج٥/ ١٤٧

سكنته لبقل" منى نفرة

فأصول صولة حازم مستمكن

وحميته غضبا لنفسي ، انه

ليس المسيء سبيله كالمحسن

وفي خطبته السابقة وبخ في غير عنف الناس الذين يطلبون من حكامهم ان يكونوا كأبي بكر وعمر ، وهم ليسوا كالناس في عهدهما .

فبلاغته تتجلى في الاسلوب الذى يرسم شخصيته ويبين مقدرته البيانية الفائقة في ترتيب الافكار في الخطبة وفي التشبيهات والاستعارات " ان الحرب صعبة مرة وهي استعارة مكنية . وفي قصر الجمل - ان الحرب صعبة مرة - واخيرا التمثيل بالشعر قصد المبالغة في التأثير لان الشعر في هذا العصر قد استعاد مكانته .

وفي بلاغة عبد الملك يقول الشعبي قال : ما ذاكرت أحدا الا وجدت لى الفضل عليه ، الا عبد الملك بن مروان ، فاني ما ذاكرته حديثا الا زادني فيه ولا شعرا الا زادني فيه (١) وتلك من الشعبي شهادة لها وزنها ويروى ان عبد الملك قال لجلسائه يوما ما تقولون في قول القائل؟

أهيم بدعد ما حييت ، فان أمت

فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

قالوا : معنى حسن. قال هذا ميت كثير الفضول ، ليس هذا معنى جيد .

---

(١) الفخرى في الاداب السلطانية / لابن الطقطقى / ٩١

قالوا : صدقت ، قال فكيف كان ينبغى ان يكون ؟ فقال رجل منهم كان ينبغى أن يقول :

أهيم بدعد ما حببت ، فان أمت
أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبد الملك : هذا ميت ديّوث قالوا : فكيف ينبغى ان يكون ؟ قال كان ينبغى ان يقول :

أهيم بدعد ما حببت فان امت
فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

قالوا : أنت " ياأمير المؤمنين " أشعر الثلاثة . (١)

خطبة عبد الملك بن مروان عام حجه :

حج " عبد الملك بن مروان في بعض اصحابه أو اعوا مه ، فأمر للناس بالعطاء فخرجت بدرة مكتوب عليها " من الصدقة " فأبى اهل المدينة قبولها ، وقالوا : انما كان عطاؤنا من الفيء فقال عبد الملك :

يا معشر قريش ، مثلنا ومثلكم ان أخوين في الجاهلية كانا مسافرين فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة ، فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارا فألقته اليهما ، فقالا : ان هذا لمن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة ايام كل يوم تخرج اليهما دينارا . فقال احدهما لصاحبه : الى متى ننتظر هذه الحية ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال ما تدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه وأخذ فأسا

---

(١) الكامل في اللغة العربية للمبرد جـ ١ / ١٠٦

معه ، ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلته ، ورجعت الى حجرها فقام أخوه فدفنه ، وأقام حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوبا رأسها ليس معها شيء ، فقال لها : يا هذه اني والله ما رضيت ما أصابك ولقد نهيت أخي عن فعل ذلك ، فهل لك ان نجعل بيننا لا تضربيني ولا أضربك وترجعين الى ما كنت عليه ؟ قالت الحية ، لا . قال : ولم ذلك ؟

قالت : اني لأعلم نفسك لا تطيب لي أبدا وأنت ترى قبر أخيك ونفسي لا تطيب لك أبدا وأنا أذكر هذه الشجة [1] وأنشدهم شعر النابغة :

فقالت أرى قبرا تراه مقابلي

وضربة فأس فوق رأسي فاغره

فيا معشر قريش ، وليكم عمر بن الخطاب فكان فظا غليظا مضيقا عليكم ، فسمعتم له واطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلا ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم (مسلما) يوم الحرة فقتلناكم . فنحن نعلم يا معشر قريش ، انكم لا تحبوننا أبدا وانتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر قتل عثمان . (٢)

<u>التعليق :</u>

ان عبد الملك بن مروان بلا شك كان فصيحا بليغا . قيل له : لقد أسرع اليك الشيب . قال شيبني صعود المنابر والخوف من

---

(١) الشجة : الشق والجرح (٢) مروج الذهب ١٢٩/٢

اللحن . وقيل له : يا أمير المؤمنين ! عجل اليك الشيب . فقال : كيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة . (١)

ان الخطبة كلها جاءت على صورة قصة وانتهت بمثل معروف هذا اذن جديد في الخطابة الاسلامية الاموية ، وهو لون جديد لم يسبقه الى ذلك أحد ، والسبب ان عبد الملك ساق هذه القصة وعرض هذه الصورة التمثيلية ليبين لأهل المدينة ما بقلوبهم من لوعة منذ يوم الحرة وأنهم لم يرضوا عنه مهما بالغ في ارضائهم وسينكرون فضله و يتنكرون لصنيعه ، وانه سبب واه في عدم قبولهم لعطائه حتى ولو كان من الصدقات ، ولكن هي الجمرة التي بالقلوب وأشلاء آبائهم بين الشعاب والهضاب . ويقول صاحب روائع الأدب : (٢)

والواقع ان هذه الكارثة التي منيت بها المدينة ، لم تكن هينة على النفوس فان قائد الخليفة يزيد بن معاوية ، ونعني به مسلم بن عقبة المري قد بطش بأهلها واباح حماها ثلاثة ايام ، قتل فيها من قتل ونهب ما نهب ، وسبى من النساء من سبى حتى كان الرجل بعد ذلك اذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول : لعلها قد افتضت في وقعة الحرة وايضا الخليفة لم يكن في موقف يدعو الى النصف ، ولكن عبد الملك كان ممتلئا غيظا عليهم ، وانتهز هذه الفرصة فجالدهم بسياط التأنيب وأظهر لهم أنه وبني أمية لن يحبوهم ابدا وهم يذكرون مقتل عثمان وقد تعدى غضبه اهل المدينة فأصاب عمر رضي الله عنه رذاذ وصفه بأنه " فظا غليظا "

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي والديني ... د . حسن ابراهيم حسن ج ١ / ٢٩٨

(٢) روائع الأدب ، د . محمد نبيه حجاب / ٢٠٠

ونسى ان عمر كان بكاء الطفل بقلقه وقصته مع الصبيان الجياع وأمهم وكيف حمل اليهم بنفسه الدقيق والشحم ولم يبرح حتى اكلوا وناموا . ورأى شيخا يسأل الناس ، وعلم انه يهودى فقال له : " ما الجأك الى ما أرى " قال : اسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذه وأعطاه ووضع عنه وعن امثاله الجزية والذوق يأبى ان يتقبل أمرا كهذا .

فحين ساق عبد الملك هذه القصة التي سوف تحملهم على الصدق والصراحة وهما اول خطوة لشفاء الصدور وصلاح الأمور .

خطبة عبد الملك بعد مقتل عبد الله بن الزبير : قال

" أيها الناس . انى والله ما أنا بالخليفة المستضعف (١) ولا بالخليفة المداهن (٢) ولا بالخليفة المأفون (٣) فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا (٤) .

التعليق :

قال أبوا لعباس : قد يقع الايماء الى الشىء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه (٥) وهي لمحة دالة كافية واضحة نرى في هذا الايجاز قوة معبرة عن شخصه وسياسته ، وكان للمحه في قوله

---

(١) المستضعف : عثمان بن عفان رضى الله عنه
(٢) المداهن : معاوية بن ابي سفيان
(٣) المأفون : يزيد : ضعيف الرأى
(٤) العقد الفريد ٢/ ١٤٢ ، ٢٦٣
(٥) الكامل للمبرد ج ٢/ ١٧

" من قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا " أقوى وأروع بيان لأن اللفظ على قدر المعنى .

ومن خطبه الموجزة ايضا قال :

ايها الناس . ان الله حد حدودا ، وفرض فروضا ، فما زلتم تزدادون في الذنب ، ونزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف . (١)

وصية عبد الملك لولده عند وفاته :

نظر عبد الملك الى ابنه الوليد وهو يبكي عند رأسه ، فقال :

(يا هذا — أحنين الحمامة ؟ اذا أنا مت فشمّر واتزر (٢) والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك ، فمن ابدى ذات نفسه ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه) .

ثم اقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال : (ان طويلك لقصير ، وان كثيرك لقليل ، وان كنا منك لفي غرور) ثم اقبل على جميع ولده فقال : " أوصيكم بتقوى الله فانها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد وهي أحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، واياكم والبغي والتحاسد فبهما هلك الملوك الماضون ، وذو العز المكين ..

يا بني : اخوكم مسلمة نابكم الذى تفرون (٣) عنه ومجنكم (٤)

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ / ٢٦٣

(٢) اتزر : البس الوزره وهي الثوب القصير ، فيكون من جنس ال

(٣) تفرون : تغشون وتحبثون . (٤) المجن : الترس الذى يقى الفارس فى الحرب .

الذى تستجنون به أصدروا عن رأيه ، واكرموا الحجاج ، فانه الذى وطألكم هذا الأمر وكونوا اولادا أبرارا وفي الحروب احرارا ، وللمعروف منارا ،وعليكم السلام .(١)

التحليل والتعليق :

عاطفة الأبوة عاطفة قوية لانها عاطفة الأصل على الفرع وهي تظهر بجلاء ووضوح عند الكبر فضلا عن وقت الاحتضار ، ولأن الابناء ثمرة القلوب ، وقرة الأعين . فهذا عبد الملك الذى قاد المعارك الطاحنة وأرهب الخوارج وسعى الى النصر بكل ما أوتي من قوة . نراه الان على فراش الموت وغدا الى ربك المساق ، يخشى على اولاده من بعده فأوصاهم بوصية كلها تبصرة وذكرى وهي خير القول وحصيلة التجارب وحياة القلوب وجلاء للنفوس ، فقال ليزيد اذا مت فضعني في قبرى ولا تعصر عليّ عينيك عصر الأمة (٢) ، والدنيا لا تعطف على ساقط في الطريق ولا يجدى معها حنين أو أنين .

وعليه أن يكون أعظم اقداما من الأسد ، وأقوى وثوبا من الفهد وكالنار سرعة على أهل الفساد والثائرين المشعلين للفتن وان لم يكن كذلك أكلته ذئاب الزمن .

وبعد أن وصف الدنيا وصفا لا يدركه على حقيقته الا من زهد في الدنيا واصبح على شفا حفرة منها . التفت الى باقي أولاده ، وأخذ

---

(١) مروج الذهب ج ٢/ ١٥٤

(٢) العقد الفريد ج ٥/٥٨

بعضهم وعظ الخبير فأوصاهم بتقوى الله والعطف على الصغير لان الرحيم يرحمه الله وتوقير الكبير ، وترك البغى والحسد لأنها من عظم الأمور ، وطلب منهم ان يلتفوا حول اخيهم مسلمه ولا يصدروا الا عن رأيه لأنه لا يهلك امرؤ عن مشورة ، ولم ينس الحجاج واعماله فأوصاهم به خيرا .

ويروى في الامالى قال : سأل الوليد بن عبد الملك أباه عن السياسة ، فقال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الضائع (١) فان شكرها أقرب الأيادى اليها (٢) .

بلاغته :

قال الثعالبى " البليغ من يحول الكلام على حسب الأمانى ويخيط الألفاظ على قدود المعانى (٣) فالوصية على قصرها جمعت الملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وفيها كثير من الكنايات والتشبيهات كقوله " شمر واتزر " " وضع سيفك على عاتقك " كن مستعدا للقتال . " التقوى جنة " " التقوى خير زاد " وهو خير تشبيه وتزودوا فان خير الزاد التقوى . اخوكم مسلمة (نابكم الذى تفرون) ومجنكم الذى تستجنون به . هذا فضلا عن عن الاستفهام الانكارى في قوله : أحنين الحمامه ؟

وأوصى عبد الملك بن مروان اخاه عبد العزيز ، حين مضى الى مصر أميرا عليها فقال له : ابسط بشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق في الأمور

---

(١) الضائع : اصلها الضغائن فيها تحريف

(٢) الامالى ٢/ ٧٨

(٣) فن الخطابة د. احمد الحوفى / ١٦٧

فانه أبلغ بك ، وانظر حاجبك :فليكن من خير أهلك ، فانه وجهك ولسانك ، ولا يقفن أحد ببابك الا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له اوترده ، واذا خرجت الى مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وثبت في قلوبهم محبتك ، واذانتهى اليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة ، فانها تفتح مغاليق الأمور واذا سخطت على أحد فأخر عقوبته فانك على العقوبة بعد الموقف عنه ، أقدر منك على ردها بعد امضائها . (١)

وكانت وفاته في شوال سنة ٨٦ هـ وهو ابن ٦٣ سنة . وفي عبدالملك يقول كثير عزة :

أحاطت يداه بالخلافة بعدما
أراد رجال آخرون اغتيالها

فما أسلموها عنوة عن مودة
ولكن بحد المشرفى استقالها

وكنت اذا نابتك يوما ملمة
نبلت لها أبا الوليد نبالها

سموت فأدركت العلاء وانما
يلقى عليّات العلا من سما لها

وصلت فنالت كفك المجد كله
ولم تبلغ الابدى السوّاى فصالها (٢)

---

(١) الفخرى في الاداب السلطانية لابن الطقطقي /٩٣
(٢) الامالى ١/١٤

(بلاغة زياد)

كان زياد خطيبا لا يجارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ الالفاظ صياغة محكمة وتصغى لها القلوب والأفئدة وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : " ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن الا احببت ان يسكت خوفا من ان يسيء الا زيادا فانه كلما اكثر كان اجود كلاما " (١) وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت في خطبه الاولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي اروع خطبة سياسية خلفها هذا العصر . وهي الملقبة بالبتراء (٢) ، سميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد (٣).

خطبة زياد البتراء :

حينما قدم زياد البصرة ، واليا عليها من قبل معاوية سنة ٤٥ هـ ، صعد المنبر وقال :

(أما بعد ، فان الجهالة الجهلاء (٤) والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم (٥)

---

(١) البيان والتبيين ٣/٦٥

(٢) انظرها في البيان والتبيين ٢/ ٦٢ وعيون الاخبار ١/ ٢٤١ والعقد الفريد ٤/ ١١٠

(٣) البيان والتبيين ٢/٦ وانظر ٣/ ٦٣

(٤) الجهلاء : الشديدة هو وصف اريد به التوكيد والمبالغة كقولهم ليلة ليلاء ويوم أيوم .

(٥) حلماؤكم : عقلاؤكم وضدها السفهاء .

من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عندها الكبير كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الاليم لاهل معصيته في الزمن السرمدى [١] الذى لايزول ، اتكونون كمن طرفت [٢] عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات [٣] واختار الفانية على الباقية ؟ ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير [٤] ، المنصوبة والضعيفة المسلوبة ، في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة [٥] تمنع الغراة عن دلج [٦] الليل وغارة النهار ؟

قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب [٧] عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا ، ما انتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم ينزل بكم ما ترون من قيامكم [٨] دونهم ،

---

(١) السرمدى : الدائم

(٢) طرفت عينه الدنيا : اصابتها فدمعت ماظلقت .

(٣) سدت مسامعه الشهوات : كناية عن تمكنها من نفوسهم

(٤) المواخير : جمع ماخور وهو بيت الريبة والفحش

(٥) نهاة : جمع ناه

(٦) دلج الليل : السير ليلا للتلصص والفتك

(٧) يذب : يدافع

(٨) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم

حتى انتهكوا محرم (١) الاسلام ، ثم اطرقوا وراءكم في كانس الريب (٢) ... حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا ، اني رايت آخر هذا الأمر لا يصلح الابما صلح به أوله :

لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني اقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل اخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد (٣) اوتستقيم لى قناتكم .

ان كذبة الأمير بلقاء مشهودة فاذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها (٤) فيّ ، واعلموا ان عندى امثالها .

من نقب منكم عليه فأنا ضامن (٥) لما ذهب من ماله ،

---

(١) محرم : جمع حرمه وهى ما لا يحل انتهاكه.

(٢) مكانس الريب : مكامنها المستترة جمع مكنس كمجلس . اما الكنوس فجمع كانس وهو المستتر والمراد انهم عاكفون على المعاصي .

(٣) مثل يضرب لتتابع الشر ، واصله ان سعدا وسعيدا ابنى ضبة بن أد خرجا في طلب ابل لأبيهما فوجدها سعد فردها ،وقتل سعيد ،فكان ضبة اذا رأى سوادا تحت الليل قال : اسعد أم سعيد ؟

(٤) اغتمزوها فى : عدوها من عيبي وهذا من قبيل التحدى روى الطبري عن الشعبي انه قال (فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ولا عد خبرا او شرا اوانفذه)

(٥) روى الطبرى (ان زيادا كان اول من شد امر السلطان ، واكد الملك لمعاوية
===

فاياى ودلج الليل ، فانى لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بمقدار ما ياتى الخبر من الكوفة و يرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية (١) فانى لا أجد احدا دعا بها الا قطعت لسانه ، قد احدثتم احداثا لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما اغرقناه ، ومن احرق قوما احرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا . فكفوا عنى ايديكم والسنتكم اكفف عنكم يدى ولسانى .

ولا تظهر من احدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين اقوام احن (٢) . فجعلت ذلك دبر (٣) أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا . ومن كان منكم مسيئا فلينزع اساءته ، انى لو علمت ان احدكم قد قتله السل (٤) من بغضى لم اكشف له قناعا ، ولم اهتك سترا له حتى يبدى

=== والزم الناس بالطاعة وجرد السيد واخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة وخافه الناس حتى أمن بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل او المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، وكان يقول : لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من اخذه)

(١) دعوى الجاهلية : قولهم : يا لفلان يعنون بذلك التناصر بالعصبية الحمقاء

(٢) الاحن : جمع احنة وهي الحقد والضغينة

(٣) دبر أذني : خلفها اى طرحت ذلك

(٤) قتله السل من بغضى : كناية عن شدة الحقد .

لي صفحته[١] ، فاذا فعل ذلك لم انظره . فاستأنفوا اموركم واعينوا على انفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس ...

أيها الناس انا اصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة[٢] نسوسكم بسلطان الله الذى اعطانا ، ونذود عنكم بفيء[٣] الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا انى مهما قصرت عنه فلن اقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو اتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن ابانه[٤] ولا مجمرا[٥] لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لائمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ،وكهفكم الذى اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم مع انه لو استجيب[٦] لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل ، واذا رأيتمونى انفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله[٧] وايم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من صرعاي " .

---

(١) صفحة الرجل : عرض وجهه ، والمراد حتى يجهر بالعداوة

(٢) ذادة : حماة جمع ذائد وهو المدافع

(٣) الفيء : الظل والمراد به هنا النعمة او الخراج وكلا المعنيين محتمل هنا اى ندفع عنكم بنعمة الله التي وهبنا اياها او بما صار في ايدينا من اموال الخراج .

(٤) ابانه : وقته (٥) تجمير الجند او البعث : حبسهم في ارض العدو

(٦) أي لو دعوتم عليهم بالهلاك فهلكوا ، لكان شرا لكم لانكم لن تجدوا بهم بدلا .

(٧) اذلاله : جمع ذل ومعناه الوجه والطريق " يقال : امور الله جارية على أذلالها : على مجاريها .

فقام اليه عبدالله بن الاهتم فقال : " اشهد ايها الامير لقد اوتيت الحكمة وفصل الخطاب " فقال له : " كذبت ذاك نبي الله داود صلوات الله عليه "

فقام الاحنف بن قيس ، فقال : " انما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وانا لن نثنى حتى نبتلى " فقال له زياد : صدقت ،
فقام ابو بلال مرداس[1] ابن أدية وهو يهمس و يقول : أنبأنا الله بغير ما قلت • قال الله تعالى ﴿ وابراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر اخرى ، وان ليس للانسان الا ما سعى ﴾ وأنت تزعم انك تأخذ البرئ بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد ، فقال : " انا لا نبلغ ما نريد فيك وفي اصحابك حتى نخوض اليكم بالباطل خوضا " •

<u>الشرح والتعليق :</u>

اذا كان اسلوب الرجل هو الرجل كما يقولون فأسلوبه يدل على شخصيته ، تلك الشخصية الحازمة المتمرسة في مدرسة عمر ابن الخطاب ومعاوية بن ابي سفيان ، فهو لا يخشى في قول الحق لومة لائم فكشف لاهل البصرة عن احوالهم ، وما هم فيه من شرور وآثام ، وذكر انهم يعيشون مع الرذيلة في حلقة واحدة سفيهم وحليمهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، وانهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يتدبروا آياته ليدركوا مدى ما فيها من الوعيد للذين يؤثرون الحياة الدنيا ، والاخرة خير وابقى ثم ندد بهم لانهم عادوا يجترون

---

(١) ابو بلال : من زعماء الخوارج •

الحياة الوثنية القديمة بالسعي لنعم الدنيا ، وتقاعسوا عن نصرة الضعيف ، وعن كل الاثام الموجودة • واخيرا اخذ العهد الوثيق على نفسه ألا يقرب طعاما اوشرابا حتى يهدم دور الفجور ، ويقضي على السلب والنهب • فيجتث بذلك الشر من جذوره ويقلع الاثام من اصولها •

رسم زياد سياسته الحازمة القائمة على اللين والشدة معا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ودستوره في البصرة واضح انه سيأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة ، وأنه جرد سيفه لمن لا يتعظ وأن من عاد الى الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه •

ولقد نجحت هذه السياسة وهي جزاء سيئة سيئة بمثلها في صلاح الأمة واعاد الى العراق أمنها واستقرارها حتى قالوا ان المرأة كانت تبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصا ، وكان الشيء يسقط فلا يعرض له احد حتى يرجع اليه صاحبه فيأخذه ، وقالوا ايضا ان الناس هابوه هيبة لم تكن لاحد من الولاة قبله •

ثم يذكرهم بطاعة اولي الأمر ، وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الالهي المعروفة عند الفرس اذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قبل ربهم ، وفي ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالافكار الأجنبية •

وهو يلوح لسامعيه بما في يد الدولة من اموال الخراج ومغانم الحرب وانها ستنشرها على رعاياها المطيعين لها نثرا ، ويهددهم بأن من تسول له نفسه بنقض الطاعة

فالسيف ينتظرهم .(١)

وحين قام اليه عبدالله بن الاهتم فقال" اشهد ايها الامير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب " فبنفس مترفعة عن النفاق رد عليه منافقته وأخزاه بقوله " كذبت هذا نبي الله داود عليه السلام " .

ولكن ابا بلال انكر عليه دستوره السياسي ، كيف يأخذ البرئ بذنب العاصي ؟ والصحيح بذنب السقيم ؟ والله تعالى يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ وما كان جواب زياد عليه الا ان قال : " انا لا نبلغ ما نريد فيك وفي اصحابك - اى الخوارج - حتى نخوض اليكم الباطل خوضا " .

خطبته بالكوفة :

خطب زياد بالكوفة بعد ان ضمت الى ولايته ، فكان لهم ألين في القول وردد على مسامعهم بعض ما قاله لأهل البصرة حين قال :

أما بعد قد جربنا وجربنا ، وسسنا وساسنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره الا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبّه سرها بعلانيتها وغيب اهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسنتهم ووجدنا الناس لا يصلحهم الا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف واني والله لا أقوم فيكم بأمر الا امضيته على أذلاله " (٢)

---

(١) العصر الاسلامي / د. شوقي ضيف / ٤٢٧

(٢) الطبري ٦/ ١٤٢ ، والأذلال: الأوجه

التعليـــــق :

هذه الخطبة سياسية خالصة ، كسابقتها في المعنى وهي تمثل حال الدولة في تقلبها ، ولما عند الناس من ملابنة ومقاومة ظاهرة أو خفية . انه أوتي حسن البيان وبراعة الخطباء .

وكانت وصاياه تمثل يقظته :

كان زياد يوصي من يوليه عملا من الأعمال قائلا :

" خذ عهدك وسر الى عملك ، واعلم انك مصروف الى رأس سنتك وانك تصير الى اربع خلال ، فاختر لنفسك . انا ان وجدناك امينا ضعيفا استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من معرتنا أمانتك ، وان وجدناك قويا خائنا ، استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك وثقلنا عزمك ، وان جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين وان وجدناك أمينا قويا زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقبك . (١)

التعليـــــق :

وهو يشبه في وصيته هذه وصية ابي بكر حين أوصى يزيد بن أبي سفيان وقد وجهه لفتح الشام قال :

" انى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فان أحسنت رددتك الى عملك ، وان أسأت عزلتك " (٢)

---

(١) الامالي ٢/ ٨٢

(٢) راجع بلاغة ابي بكر .

بلاغة زياد :

ان بلاغة زياد في فصاحته وروعة بيانه ، نموذج للعربية الفصحى • وهي مقسمة الى اجزاء مستوفية عناصر الخطبة الكاملة فترتيب الافكار وتسلسل الاجزاء والترابط بينها يكتنفها بين جوانبه الغرض العام وهو ايضاح خطته في الحكم وسياسته الجديدة ومنهجه المقبل • وهي تشتمل على مجموعة من المبادئ السياسية والعظات الدينية والخلقية • ولكنه صاغها في قوالب لفظية وصور ببيانه كل منها يصلح ان يكون موضوعا لخطبة مستقلة •

واسلوبه يتسم بالعنف ،والوعيد والتهديد وهذا ما يقتضيه المقام • وهو لا يتبع اسلوب التفصيل وانما اسلوب الاشارة واللمحة الموجزة •

لجأ الى الأسلوب التصويري فمن بديع تشبيهه واستعارته قوله : " أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات " ؟ ومن محكم تمثيله قوله : " انج سعد فقد هلك سعيد " •

اقتضاه الموقف الحاسم ان يلجأ الى الاتكاء على ادوات التوكيد لتأكيد الاخبار في مقام الانكار ، وقدم ما حقه التأخير على سبيل القصر ، وجاء كلامه مفعما باسلوب الشرط " فقد اعذر من أنذر " •

هذه المميزات الخطابية هي التي حملت القوم على الاعجاب بفصاحة زياد وهي التي تدعونا لأن نضعه في طليعة الخطباء في عصره وفي عصورنا الأدبية •

(بلاغة الحجاج)

ان الامويين حزب سياسي ، ورجال ممتازون ، ساسوا دولتهم بكل حزم وقوة ، واخمدوا الثورات والفتن وسيروا الجيوش لذلك ، وكان احد قواد هذه الجيوش ، الحجاج بن يوسف الثقفي الذى كان درع عبد الملك وساعده الأيمن القوى في كل الشدائد والمحن بل عتا عنه عتوا كبيرا ، بدأ اتصاله بالحكم منذ عمل في شرطة روح بن زنباع مستشار عبد الملك بن مروان . ثم اتصل بعبد الملك اذ قلده أمر عسكره ثم ولاه تبالة من اعمال اليمن فاستهان بها واستعفى عبد الملك من ولايتها فأعفاه .

وسيره لحرب عبدالله بن الزبير ، فحاربه ولم يمنعه جلال البيت وحرمة الحرم عن افعاله ، وقتله وقضى على دولته ، ففزع الناس لمقتله وارتجت جوانب مكة بالبكاء ، ودخل على أسماء معزيا غير حزين ولا مكترث ويسألها رأيها فقالت : افسدت عليه دنياه ، وفسد عليك آخرتك وولى الحجاز سنة ٧٥ هـ وارتفع منذ ذلك الحين صوته مدويا ، فهو خطيب بليغ حافظ للقرآن الكريم لم يلحن مرة قط لا جادا ولا هزلا ، وأخذ يهون هذا الأمر للناس ويلتمس الأسباب لقتل ابن الزبير .

خطبته بعد مقتل ابن الزبير قال :

" ألا ان ابن الزبير كان من احبار هذه الأمة حتى رغب

في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولوكان شيء ما نما للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لان الله تعالى خلقه بيده ، واسجد له ملائكته ، واباحه جنته ، فلما عصاه اخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله اكرم من الزبير والجنة أعظم من حرمة الكعبة . (١)

التعليق :

في هذا القول مغالطة وتمويه والحقيقة ان ابن الزبير لم يخلع الطاعة الا بعد ما نكث معاوية العهد ولم يقبل ما شاروا به اهل مكة واخذ البيعة قهرا وخاصة من الثلاثة نفر عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وعبدالله بن الزبير ، وجعل الخلافة سنة هرقلية وابتعد عن سنة الخلفاء الراشدين - الشورى - فحرى بعبدالله الا يبايع يزيد ورغبته في الخلافة ليست خلعا لطاعة الله ويستوجب عليها القتل .

وقد قال الحسين بن علي رضي الله عنهما : " ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن ، واظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، واحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله. (٢)

وقتل عبدالله وصلبه ظلم وعدوان ومصيبة على العجوز أسماء .

ولكن الله يقول في كتابه الحكيم * وبشر الصابرين * ويقول تعالى * ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير * (٣)

---

(١) سرح العيون / ١٢٢

(٢) جمهرة خطب العرب / ٢ / ٤٨ (٣) سورة الحديد آية / ٢٢

تتجلى في هذه الخطبة قدرته البيانية على اسكات خصمه وهي موهبة بارزة فيه وفي احضار صورتين الثانية قياس للأولى وهو قياس واضح البطلان فلا معقب على حكم الله اذا اخرج ادم من الجنة ، اما حكم البشر فمحال ان يكون كحكم الله وهيهات ان يتساوى الخالق بالمخلوق في اصدار العقوبة .

ولما رأى الحجاج ان هذا التمويه لم يجد ، كشف النقاب عن حقيقة تأخذ بالالباب وهي طريقة الارهاب والتهديد فصعد المنبر وقال :

موج ليل الظلم ، انجلى بصبحه ، يا أهل الحجاز ، كيف رأيتموني ؟ ألم اكشف ظلمة الجور ، وطخية (١) الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق ، وعطفة رحم ، ووصل قرابة ، فاياكم ان تزلوا عن سنن اقمناكم عليه ، فاقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف (٢) من أود القنا ، بالنار

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها
وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا (٣)

---

(١) طخية : الظلمة

(٢) المثقف : مقوم الرماح ، الأود : الاعوجاج

(٣) مواسم الأدب ٢/٣/١٢

التعليق :

(١) — ما أبدع هذا التشبيه الذى أتى به الحجاج " ظلمة الجور وطغية الباطل " هل كانت فترة عهد ابن الزبير ظلما وجورا ام عهد الأمويين ؟

(٢) — ثم القسم " والله لقد وطئكم " هل يكون الوطء فيه شفقة ويكون فيه قوة ؟ !

(٣) — ووصل قرابته ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعطى ابا سفيان والمؤلفة قلوبهم اكثر من الانصار وقال يوم فتح مكة من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وقال عليه السلام يوم ان ظفر بقريش :

ما تظنون انى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال عليه السلام : اذهبوا فانتم الطلقاء ، فلما ابتعدت عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حجاج حين ظفرت بابن الزبير ، لقد فعلت يا حجاج ما أراده الله ان يكون اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ، وكان الله بعباده خبيرا بصيرا ، ولكن هذه هي سياسته .

ومكث بالحجاز ثلاث سنين فاستصغر الحجاز وطمع في غيره اذ كتب الى عبد الملك يقول : " قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة " فولاه عبد الملك على العراق بعد موت بشر بن مروان . فحكم الحجاج العراق بالشدة التى لا هوادة فيها واتخذ السيف صديقه ، ولسانه حجته يتعاونان معه في القضاء على أهل الفتن والثورات . وحين دخلها كان في اثنى عشر راكبا على النجائب ، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ،

ثم صعد المنبر وهو معتم بعمامة قد غطى بها اكثر وجهه متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا ، ومكث ساعة لا يتكلم ، حتى اذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني (١)

أما والله انى لاحمل الشر بحمله وآخذه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وانى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها ، وانى لأنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى (قد شمرت عن ساقها فشمرا)

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم (٢)
ليس براعى ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

انى والله يا أهل العراق ، والشقاق والنفاق ، ومساوىء الاخلاق ما يغمز/تغماز جانبي التين ، ولا يقعقع لى بالشنان (٣) ، ولقد فررت عن ذكاء (٤) وفتشت عن تجربة ، وجريت الى الغاية القصوى ، وان أمير المؤمنين

---

(١) الشعر لسحيم بن وثيل الرياحي
(٢) الرجز لرويشد بن رميض العنبرى
(٣) الشنان : جمع شن وهو الجلد الجاف اذا ضرب وقعقع نفرت الابل
(٤) فرعن الأمر : بحثه وكشف عنه

- أطال الله بقاءه - نثر كنانته (١) بين يديه ، فعجم (٢) عيدانها ، فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا ، فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم (٣) في الفتن ، واضجعتم في مراقد الضلال . والله لاحزمنكم حزم السلمة (٤) ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . انى والله ما اقول الا وفيت ولا أهم الا امضيت ، ولا أخلق الا فريت (٥) وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم ، وأن اوجهكم لمحاربة عدوكم المهلب بن ابي صفرة ، واني لا أجد رجلا تخلف بعد ثلاثة ايام الا ضربت عنقه (٦) .

في الخطبة كناية خفية ملغزة كقوله : (من أعياه داؤه فعندي دواؤه ، ومن استطال اجله فعلى أن أعجله ...) وأسلوب الكناية من ابلغ اساليب البيان وبخاصة في مقام الوعيد والتهديد .

---

(١) الكنانة : جعبة السهام

(٢) فعجم : اختبرها

(٣) اوضعتم في الفتن : اسرعتم اليها

(٤) السلمة : شجرة السنط

(٥) فريت : قصعت

(٦) العقد الفريد ج ٢ ، البيان والتبيين ج ٢ / ٣٠٩ ، مروج الذهب ج ٢

وبعد الخطبة لم يتسن لاحد ان يحرك شفتيه حتى استغفارا أو يظهر استياء لما سمع من الشتم والتهديد ويقولون فيما بينهم " قبح الله بني أمية ، اذ تستعمل مثل هذا على العراق " ، ثم أمر الحجاج غلامه ان يقرأ على الناس كتاب عبد الملك اليهم فقرأ :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم " فلم يرد احد من الحاضر بن سلام الخليفة ، فأمر الحجاج غلامه بالكف عن القراءة ، وأخذ يوبخ الناس ويتهددهم ويتوعدهم وقال : " هذا أدب ابن نهيه والله لأودبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن ثم أمر غلامه أن يعيد الكرة ، فلما أقرأهم سلام الخليفة قال الحاضرون : على أمير المؤمنين السلام . (١)

ثم نزل فأتاه عمير بن الضابي فقال : أيها الأمير ، اني شيخ كبير عليل ، وهذا ابني أقوى على الغزو مني . قال : أجيزوا ابنه عنه ، فان الحدث احب الينا من الشيخ . فلما ولّى الرجل قال له عنبسه بن سعيد : أيها الأمير ، هذا الذى ركض عثمان برجله وهو مقتول . فقال : ردّوا الشيخ . فردواه ، فقال : اضرب عنقه ! فقال فيه الشاعر :

تجهز فاما ان تزور ابن ضابي
عميرا واما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما
ركوبك حوليا من الثلج اشهبا

---

(١) الطبرى ٧/٢١٠ ، مروج الذهب ٢/١٥٢ ، العقد الفريد جـ٥/٢٥٩

التعليـــــق :

الحجاج بن يوسف الثقفي احد جبابرة العرب ، واحد الخطبـــــاء المصاقــع والبلغـــاء المصاد ع الذى جمـع بين روعـة المعنى وسـموه وجزالة اللفظ وقوتــه وفصاحــة العرب في الألفاظ ، ونراه في هذه الخطبـــة يصول ببأس الحديد ، ويفصـح بآيات البلا غـة ولا ندرى في أيهما أقدر • أفن القول ام القتال ويقول الأصمعـــي أربعــة لم يلحنوا فـــي جد ولا هزل : الشعبي ، وعبدالملك بن مروان والحجاج بن يوســـف وابن القريــة ، والحجاج أفصحهـم "•

وصدق الشعبي حين قال : تماشر الناس فيما بينهم زمانا بالديــن والتقوى ثـم رفع ذلك ،فتماشروا بالحياء والذمـم ، ثـم رفـع ذلك فما يتماشر الناس الا بالرغبة والرهـبة وسيجـى ما هو شرمن ذلك • (١) فجـاء الحجاج ودخل المسجد متلثما ، والسيف في غـمده ، والقوس على كاهله ثـم صمت طويــلا • فهذا دليل على قوة العقل الذى اوحـى اليه بهـــذا التصرف لان كل فعل يدل على شـىء ، ويجعل الناس في حيرة من أمره ، وتــثار حولـه الظنون وهو بينهم كأنهم لم يكونوا • وعـندها نطـــق ببيان اللبيب العاقل والمحصل الفاهم وقال :

انا ابن جـلا وطـلاع الثـنايـا

متى أضـع العمامـة تعرفونـــى

زكـى نفسه وتغنى بحزمـه وعزمـه ، كيف لا واخباره وصلت الجـوزاء

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ /٢٢٦

بما فعله بالزبير ومكة . ثم ابان لهم صفاتهم " وان اهل العراق اهل الشقاق والنفاق فأراد ان يوضح عيوبهم ولينخضعوا وينصاعوا وقد حصل ذلك بقوة عقله وشجاعته وبطشه وحسن سياسته وقوله : " لقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة " دليل على نجاحه ونصره في اعصب المواقف . وأنالها لأن الأمير لم يجد أمرّ عود وأصلب منى فرماكم بي وبهذا القول نتبين صورة الخطابة وتطورها تبعا لتطورات العصر وما فيه من اضطراب وفتن .

واعتمد الحجاج في خطبته على كثير من ألوان البيان والبديع ، وفي التشبيهات الرائعة المصيبة " اني لأرى رؤسا قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها " . ومن التشبيهات قوله " والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل " .

خطبته وقد قدم البصرة :

وخطب لما قدم البصرة يتهدد ويقول :

(أيها الناس . من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلىّ ان اعجله ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره ، قصرت عليه باقيه . ان للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه . انى انذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، انما افسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه . ان الحزم والعزم سلبانى سوطى ،

وأبدلا ني به سيفي ، فقائمه في يدي ، و نجاده[١] في عنقي ، وذبابه[٢] قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم ان يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه الا ضربت عنقه .[٣]

التعليق :

ان نقمة الحجاج على أهل العراق اقوى من نقمة عبد الملك ابن مروان ورأى أن انفع دواء لداء الفتن هو ان يوجه اهل العراق في المغازي والبعوث ، وان يشغلهم بحرب البلاد الاخرى عن حربهم اياه والانقضاض على الدولة وهذا دليل على ذكائه وتفرسه والذي حدث مع عبدالله بن ظبيان الذي قتل مصعب بن الزبير وكيف استطاع ان يشغله بنفسه يقول عبدالله بن ظبيان : كنت واقفا على باب الحجاج فاذا به قد خرج وحده وليس بالباب أحد ، فوقع في نفسي أن اقتله فنظر الي وقال : هل لقيت يزيد بن ابي مسلم ـ كاتب الحجاج ـ؟ قلت : لا . قال القه فان تولتك الرى معه . فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت الى يزيد فلم أجد عنده شيء ففهمت ان الحجاج قال لي ليشغلني عما اردته به .[٤]

فهذه سياسته يرسلهم الى الحروب و يستكثر عليهم طيب ليلة الاياب بعد النصر والغياب ، فكأنه كان يريدها لهم غيبة بلا عودة ،

---

(١) نجاده : حمالته . (٢) ذبابة : ذباب السيف حد السيف

(٣) نهاية الارب ج ٧ ـ سرح العيون

(٤) ادب السياسة في العصر الأموي / ٥١٣

ولم يكتف بهذا الصنيع عملا فأخذ يصارحهم بذلك رأيا ويلح من عنفه عليهم أن يسوءه سوء هم يقول :

" يا أهل العراق . انى لم أجد دواء أدوى (١) لدائكم من هذه المغازي والبعوث ، لولا طيب ليلة الاياب وفرحة القفل (٢) فانها تعقب راحة ، واني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم الا كارهين لمقالتي وأنا والله لرؤيتكم أكره ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي مقاساتكم ، والصبر على النظر اليكم والله أسأل حسن العون عليكم (٣) .

هكذا كانت العلاقة بين الراعي والرعية وهذه سياسة الحكم التي اظهرها في خطبه وحين كتب له الوليد ان يصف له سيرته فكتب اليه الحجاج :

(انى أيقظت رأيى ، وأنمت هواى فأدنيت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحرب الحازم في أمره وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وصرفت السيف الى النطف المسيء ، والثواب الى المحسن البرئ ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب) (٤)

---

(١) اكثر امراضكم
(٢) القفل : الرجوع
(٣) العقد الفريد ج ٢ / ١٥٣
(٤) المصدر السابق ج ٥ / ١٧١ — ١٧٢

فقال الوليد : ألا ان امير المؤمنين عبدالملك كان يقول :

" الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، وأنا أقول انه جلدة وجهى كله " (١)

(وبعد) فهذه هي بلاغة الحجاج المتدفقة التى تهدر كالسيل وتأخذ مجراها في القلوب بما تضمنته من تشبيهات رائعة واستعارات بارعة وكنايات بليغة ، فلا غرو ان كان من فحول الخطباء في عصر الخطابة الذهبي .

---

(١) العقد الفريد ج ٥ / ٢٧١ — ١٧٢

الفصل الرابع

الزبيريون

ينسب هذا الحزب الى عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى .

وفكرة انشاء حزب الزبيريين وجدت في نفس عبدالله بعد مقتل عثمان حين نادى الزبير وطلحة وعلى رأسهما السيدة عائشة رضى الله عنها بالمطالبة بدم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان عبدالله من أشد الناس ميلا الى حرب على ولكن بعد معركة الجمل ارسل على بن ابي طالب السيدة عائشة معززة مكرمة ومعها ابناها الحسن والحسين ، وكمن ابن الزبير في داره بعد الهزيمة ولما انتهى الأمر لمعاوية استطاع أن يسوسه بالرضى تارة وبالحذر تارة اخرى وبما يغدق عليه من عطاء .

وحين قام معاوية بأخذ البيعة لابنه يزيد بدت معارضة عبدالله وأخذ يناهض الفكرة ، ويقود حزب المعارضة في وجه معاوية وهذه أول خطوة عملية كشفت هدفه وبينت مقصده . ولكن معاوية اضطره الى البيعة . (٢)

وبعد موت معاوية لم يلبث عبدالله أن نقض البيعة فهب يدعو الى نفسه سنة ٦١ هـ.

---

(١) تاريخ الشعر السياسي / احمد الشائب / ص٢٥٠

(٢) راجع العقد الفريد ج ٥/ص١١٣ لترى كيف اجبر معاوية الحسين بن على والزبير بن العوام ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الرحمن بن ابى بكر رضى الله عنهم على البيعة .

ولما تولى يزيد مكث عبدالله بمكة ، ودعا لنفسه بالخلافة ولكن محمد ابن الحنفية وجماعة من بني هاشم أبو مبايعته فحبسهم في سجن عارم " فوجه المختار الثقفى رجالا من الشيعة اخرجوهم منه . ولذلك كان ابن الزبير يكره بني هاشم ويكره الامويين وكاد يتم له الأمر في الشام — بعد اتساع نطاق الدعوة الذى شمل الحجاز والعراق واليمن — لولا تدارك الامويين للأمر في مرج راهط . وكان سنده الأول أخوه مصعب .

فلما توجه الى الكوفة خطب خطبة (١) اقتبسها من القرآن فصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم * طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين * وأشار بيده نحو الشام ،

* ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * وأشار بيده نحو الحجاز .

* ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون * وأشار بيده نحو العراق . (٢)

التعليق :

ان خطبة مصعب بن الزبير كانت فصل الخطاب ، وان الله عز وجل قد وفقه فأحسن القصد ، والسورة التى تبين هدفه ومآربه فهو

---

(١) جمهرة خطب العرب ج٢/١٨١

(٢) أول سورة القصص

لم يزد على ان قرأ صدرا من سورة القصص . فالقسم الأول الذى أشار بعده بيده الى بلاد الشام يقصد عبد الملك بن مروان وفعله في البلاد ونريد أن نمن ... وأشار بيده نحو الحجاز يقصد أخاه عبدالله ابن الزبير وبقوله ونمكن له في الأرض ... يريد المختار الثقفي وحزبه الذين غضبوا لمقتل الحسين وهم الان يكفرون عن خطيئتهم بحرب بني أمية .

والحق ان هذا لون جديد من ألوان التعبير والبيان ، فهل يوجد بلاغة أعلى من القرآن في مثل هذا التقسيم ؟ ان القرآن يعلو ولا يعلى عليه تنزيل من عزيز حكيم . فلما تفصح به مصعب كانت فصاحته تناسب المقام وتغني عن كل بيان ﴿ لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ .

فخرج عبد الملك بن مروان حتى دنا من العراق ، وخرج مصعب بأهل البصرة (١) والكوفة ، فالتقوا بين الشام والعراق ، وكان عبدالملك كتب كتبا الى وجوه أهل العراق يدعوهم فيها الى نفسه ويجعل لهم الأموال ، وكتب الى ابراهيم بن الأشتر بمثل ذلك ، على ان يخذلوا مصعبا اذا التقوا ، فقال ابراهيم ابن الاشتر لمصعب : ان عبد الملك قد كتب اليّ هذا الكتاب ، وقد كتب الى اصحابي بمثل ذلك . فادعهم الساعة فاضرب اعناقهم . قال : ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي أمرهم ، قال : فأخرى ... قال : ما هي ؟ قال : احبسهم حتى يستبين لك ذلك . قال : ما كنت لافعل . قال : فعليك السلام والله لا تراني

---

(١) العقد الفريد جـ٥/ص١٤٩

في مجلسك هذا ابدا . وقد كان قال له: دعني أدعو أهل الكوفة بما شرطه الله فقال : لا والله قتلتهم أمس وأستنصر بهم اليوم قال : فما هو الا ان التقوا فحولوا وجوههم وصاروا الى عبد الملك ، وبقي مصعب في شرذمة قليلة . فجاءه عبيد الله بن زياد بن ظبيان — وكان مع مصعب — فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم بأهل العراق . فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة فنشب السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعبا بالسيف فقتله ثم جاء عبيد الله برأسه الى عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا

وليس علينا قتلهم بمحرم

قال فلما نظر عبد الملك الى رأس مصعب خرّ ساجدا فقال عبد الله ابن ظبيان ، وكان من فتاك العرب . ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك بن مروان اذ اتيته برأس مصعب فخر ساجدا أن لا أكون ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

ثم نظر عبد الملك مليا الى رأس مصعب ثم قال : متى تلد قريش مثلك ؟.

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل مصعب ، صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة فقال رجل من قريش لرجل الى جنبه ماله لا يتكلم ، فوالله انه للخطيب اللبيب ، فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيّد العرب فيشتد ذلك عليه وهو غير ملوم . ثم خطب في ذلك يقول : (١)

---

(١) العقد الفريد جـ٥ /ص ١٥٠

الحمدلله الذى له الخلق والامر و(ملك) الدنيا والآخرة ﴿ يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ،ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء﴾ أما بعد : فانه لم يعزّ من كان الباطل معه ولوكان معه الأنام طرّا ، ولم يذل من كان الحق معه ولوكان فردا ، ألا وان خبرا من العراق أتانا فاحزننا وأفرحنا . فاما الذى أحزننا فان لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ثم يرعوى ذوو الألباب الى الصبر وكريم الأجر ، وأما الذى أفرحنا فان قتل مصعب له شهادة ولنا ذخيرة .

أسلمه الطغام . الصم الآذان . أهل الفراق وباعوه بأقل من الثمن الذى يأخذونه عنيه ، فان يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وعمه ، وكانوا الخيار الصالحين . انا والله لا نموت حتف أنوفنا كما يموت بنو مروان ولكن قصعا بالرماح ، وتحت ظلال السيوف ، فان تقبل الدنيا على لم آخذها مأخذ الأشر البطر ، وان تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق (١) الزائل المقل .

الشرح والتعليق :

في هذه الخطبة بعد الحمد والثناء على الله ، بين أن الله فعال لما يريد يعطى الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء . ثم بين حقيقة واقعية ان الباطل واهله مما كثر قوته واتباعه فلن يدوم ذلك طويلا ، وأن أهل الحق وان ضعفوا وقل اتباعهم فالله لا بد أن يشملهم بتأييده ونصره . ثم عبر عن حزنه لفراق سيد شباب قريش عن مصرع أخيه

---

(١) الخرق : المدهوش المبهوت .

وأما حزنه فمن لوعة الفراق على اخيه وسنده وعضده، الا انه يجد لنفسه العزاء لأن مصعبا قد استشهد في سبيله • وقد نصحه ابراهيم بن الاشتر بقتل أو حبس وجوه اهل العراق فأبى لانه لم يعرف الخداع والحيلة ولانه صاحب شهامة ومروءة كان مصعب لوعلم ان الماء يفسد مروءته لم يشربه لذلك لم يبتدئ بسوء مع اهل العراق • فغدروا به وقتلوه وذم أهل العراق /الذين خذلوه •

فاخره بأبيه الزبير بن العوام الذي قتله عمرو بن جرموز يوم الجمل وعمه/الذي استشهد يوم اليرموك وهو عبد الرحمن بن العوام ، وأخوه المنذر بن الزبير /الذي قتله جيش يزيد بن معاوية بمكة ، فالزبيريون لا يموتون الا في ساحة الشرف وميادين الجهاد وبنو أمية /يموتون على فرشهم من غير قتل ولا ضرب فاين هذا من ذاك وهو الشهادة في سبيل الله ؟!

وأعلن ما في نفسه بأنه لن يسعى وراء الدنيا ولا الخلافة فان جاءت قبلها ، وان ذهبت فالله خير وابقى •

بلاغته :

الخطبة قصيرة وافية بالغرض لأن خير الكلام ما قل ودل •

وقد بدأها بآيات من القرآن بينت مضمون الخطبة وهو ﴿وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ﴾

استعان على قلة ببعض السجع ، والازدواج والمقابلة •

فالسجع :/جاءنا خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق

والمقابلة : ﴿ يؤت الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ﴾

ثم الاقتباس من القرآن الكريم كما ذكر .

والعاطفة حارة جياشة سواء في لوعة الفراق على اخيه أم في السخط على اهل العراق •

والعبارة قوية تؤدى المعنى المقصود به .

ولما قتل مصعب بن الزبير ، دخل عبد الملك بن مروان الكوفة وبايعه الناس قال (١) له الحجاج : انى رأيت المنام كأنى اسلخ ابن الزبير من رأسه الى قدميه فقال له عبد الملك : أنت له فاخرج اليه . فخرج اليه الحجاج في ألف وخمسمائة حتى نزل الطائف ، وجعل عبد الملك يرسل اليه الجيوش رسلا بعد رسل ، حتى توافى اليه الناس قدر ما يظن انه يقوى على قتال ابن الزبير وكان ذلك في ذى القعدة/ سنة اثنتين وسبعين ، فسار الحجاج من الطائف حتى نزل منى ، فحج بالناس وابن الزبير محصور ، ثم نصب الحجاج المجانيق على ابى قبيس وعلى قيعمان ونواحي مكة كلها يرمى أهل مكة بالحجارة فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها ابن الزبير ، جمع ابن الزبير من كان معه من القرشيين ، فقال ما ترون ؟ قال رجل من بنى مخزوم من آل بنى ربيعة : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت . وانما هي احدى خصلتين : اما أن تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا واما أن تأذن لنا فنخرج . فقال ابن الزبير لقد كنت عاهدت الله ان لا يبايعنى احد فأقبله بيعته الا ابن صفوان ، فقال له ابن صفوان : أما انا فاني اقاتل معك حتى أموت بموتك وانها لتأخذني الحفيظة ان اسلمك في مثل هذه الحالة ...

فلما اصبح دخل على بعض نسائه فقال لها اصنعى لنا طعاما فلم يأكل منه شيئا ثم قال : اسقوني لبنا ، فاتى بلبن ، فشرب منه ، ثم قال هيئوا لى غسلا ! فاغتسل ثم تحنط وتطيب ، ثم نام نومة وخرج ودخل على

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ١٥٢ ـ ٥٧

أمه اسماء ابنة ابي بكر ذات النطاقين ، وهي عمياء وقد بلغت مائة سنة ، فسلم فقالت من هذا؟: فقال : عبدالله! فشمته ، فقال : يا أمه (١) : خذلني الناس حتى ولدى (٢) وأهلي فلم يبق معي الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وان كنت انما اردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وان قلت كنت على حق ، فلما وهن اصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن والله لضربة بالسيف في عز ، أحب الي من ضربة بسوط في ذل . قال : اني اخاف ان تقتلوني ان يمثلوا بي . قالت : يا بني ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعيا الى يومي هذا ، ما ركنت الى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله ان تستحل حرمه ، ولكنني احببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أمه ، فاني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الامر لله فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ،

---

(١) خطب جمهرة العرب / ج ٢ / ١٧٨ / العقد الفريد
وبلاغات النساء ص ١٣٠

(٢) وكان قد خرج الى الحجاج ابناه حمزة وخبيب فأخذا منه لانفسهما أمانا .

ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل انكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي ، اللهم انى لا أقول هذا تزكية مني لنفسي — أنت أعلم بي — ولكن اقوله تعزية لأمي لتسلوعني ، فقالت أمه : اني لأرجو من الله ان يكون عزائي فيك حسنا ان تقدمتني ، وان تقدمتك ففي نفسي حرج حتى انظر الام يصير امرك . قال : يا أمه جزاك الله خيرا ! فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد .

فقالت : لا أدعه لك ابدا ، ولمن قتلت على هذا ؟ فقد قتلت على حق ثم قالت : " اللهم ارحم ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبي ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت ، فاثبني في عبدالله ثواب الشاكرين " (١)

ثم ودعها وخرج وقاتل وحده ولا يهده شيء ، كلما اجتمع عليه القوم فرقهم وذادهم حتى اثخن بالجراح ولم يستطع النهوض ، فدخل عليه الحجاج فدعا بالنطع فحز رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة لا رحم الله الحجاج ثم بعث برأسه لعبدالملك بن مروان ، وقتل من اصحابه من ظفر بهم ثم اقبل فاستأذن على أمه اسماء بنت ابي بكر ليعزيها ، فأذنت له ، فقالت له : يا حجاج : قتلت عبدالله ، قال : يا بنة ابي بكر : اني قاتل الملحدين قالت : بل قاتل المؤمنين الموحدين .

قال لها : كيف رأيت ما صنعت بابنك ؟ قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك ، ولا ضير أن اكرمه الله على يديك ، فقد أهدى رأس يحيى بن زكريا الى بغى من بغايا بني اسرائيل .

---

(١) انظر الفخرى في الاداب السلطانية ص٩٠ لابن الطقطقي

التحليل والتعليق :

قال على رحمه الله " قيمة كل امرئ ما يحسن (١) " فالسيدة أسماء بنت اول من بشر بالجنة احسنت القول والمشورة لابنها بحديث كلما بلى الزمان ازدادت عبارته جدة لانه يشع بقوة ايمانها المستمدة من قوة العزيمة، فكان موقفها كموقف الخنساء ، ونسيبها، والمرأة التي من بني دينار وقد اصيب زوجها واخوها وابوها في موقعة احد فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله فأجابوا بخير وهو بحمد الله ولم تطمئن حتى رأته وقالت : كل مصيبة بعدك جلل (٢) .

فهؤلاء النساء الاوائل قدمن احب الناس الى نفوسهن فداء للعقيدة والدين ، وضربن المثل الاعلى في التضحية وتلبية نداء الجهاد ، غير أن اسماء لم تقف عند هذا الحد ، حد العاطفة المشبوبة ، فلها قلب عقول فخاطبت العقل معتمدة على الواقع الواضح ، فنراها توضح له بوضعها النقاط على الحروف بأنه ان فر من الجهاد فلن ينجو من غلمان بني أمية الذين سيغدرون به كما غدروا بمن قبله .

ثم ماذا ؟ ثم نراها تخاطبه بقلب عامر بالايمان عالم بمكانة الشهداء فتبسط له جميع الاحتمالات لتزيل من نفسه جميع الترددات ان وجدت فهي تقول :

ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ...

وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد أنت اهلكت نفسك ومن معك .

وان قلت : كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين .

---

(١) البيان والتبيين ج١ / ٨٣

(٢) الجلل : الهين ، و تطلق أيضا على العظيم .

وباسلوب الاستفهام التهكمي حقرت له الدنيا ٠ كم خلودك في الدنيا ؟

والله لضربة سيف في عز أحب اليّ من ضربة سوط في ذل ٠

فما أن صارحها بتخوفه من التمثيل بجسده بعد موته حتى قالت : قولتها المشهورة : " وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها " ٠

ولو تساءلنا ما سرّ المناقشة التي دارت بينه وبين أمه ؟

هل آثر الحياة على الموت في ساحة الشرف ؟ حين قال : القوم يحطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

أم نفسه تحدثه بالفرار ؟

نقول كلا لا هذا ولا ذاك ، كيف يكون هذا مقصده وهو القائل :

أتى لابن سلمى أنه غير خالد

ملاقي المنايا أيّ صرف تيمما

فلست بمبتاع الحياة بسبة

ولا مرتق ، من خشية الموت سلما (١)

وانما هي المشورة لمآرب اخرى افصح عنها ٠

فقد أراد ان يعد أمه ويمهد نفسها ليوم له ما بعده وهذا منتهى البر والعطف بهذه الأم العجوز حتى اذا نزل القضاء وأتى أمر الله لا تجزع ولا تهلع وهذا يظهر في قوله " ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني " ٠

وأن السيدة اسماء في دعائها، تظهر صفات البر والعطف عنده وتقواه —

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ٢ / ص ١٨٠

" اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبي ".

وعن ايوب عن ابي قلابة : شهدت ابنة ابي بكر غسّلت ابنها ابن الزبير بعد شهر ، وقد تقطعت اوصاله وذهب برأسه ، وكفنته ، وصلت عليه (١) فمتى تلد النساء مثل اسماء رضى الله عنها ؟!

ومن بلاغة ابن الزبير خطبته يوم قتله :

خرج من عند امه فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ان الموت قد تغشاكم سحابه وأحدق بكم ربابه (٢) واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق (٣) ورجس (٣) نحوكم رعده وهو مفرغ عليكم ودقه (٤) وقائد البكم البلايا تتبعها المنايا فاجعلوا السيوف لها غرضا ، واستعينوا عليها بالصبر ، وتمثل بأبيات ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدّ اصحابك ضرب الاعناق

وقامت الحرب لها على ساق

ثم جعل يقاتل حتى قتل .

فبلاغته تتجلى في التشبيهات بجعل المعنى محسوساً ، ثم وحدة الموضوع . فقد شبه الموت بالسحابة التي اظلت واجتمعت بعد تفرق وأرعدت وازبدت ونزل مطرها . والمطر منه؟ بلايا ومنايا فما موقفكم منها؟.

(١) العقد الفريد ج ٥ / ١٥٧

(٢) ربابه : السحاب الابيض ، ارجحن : مال من ثقله واهتز

(٣) تمشق : تمزق رجست السماء : رعدت بشدة وتمخضت

(٤) الودق : المطر

حمل السيوف والصبر والثبات والله يفعل ما يشاء .

وبموته انتهى حزب ابن الزبير الذى لم يدم طويلا . وانتهت معه زعامة الحجاز اذاك .

خصائص خطب الزبيريين :

كان الزبيريون كغيرهم من الاحزاب ، يعتمدون على الخطابة هجوما ودفاعا ، وقد يفوق اعتمادهم عليها اعتمادهم على وسائل العنف فحاربوا قليلا لان فترة الجهاد كانت قصيرة ولكن خطبهم كثيرة .

ففي خطبهم يظهر الأثر الاسلامي — وان كانت الخوارج ابرز لهذا الأثر في خطبهم — . فخطبة مصعب بن الزبير ما هي الا ايات قرآنية قرأها وأشار لاهل الشام ، والحجاز ، والعراق قال ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ لذلك اصبح القرآن المنهل الاعظم والمورد الاول الذى يرده الخطباء فينعكس صداه في اثرهم الأدبي .

كان ابن الزبير يحرص على أن تكون الخلافة من قريش ، ويسندها في ذلك المضرية وكان هذا منه معارضة للأمويين الذين استأثروا وحدهم بالملك .

يقول : ان هذه الخلافة لقريش خاصة ، فاتق الله يا معاوية وانصف من نفسك ، فان هذا عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا عبدالله بن ابي جعفر ذى الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عبدالله بن الزبير ، ابن عمة رسول الله ، وعلى خلّف حسنا وحسينا

وأنت تعلم من هما (١) .

وفي خطب الزبيريين يتبعون الاسلوب التصويري الذى يبرز الافكار ويزيد المعنى وضوحا وهو كفيل في اثارة شعور المخاطبين يقول عبدالله بن الزبير في تصوير الموت :

" ايها الناس ، ان الموت قد غشاكم سحابه ، وأحدق بكم ربابه واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق ، ورجس نحوكم رعده وهو مفرغ البكم ودقه .

وكذلك يجيء الطباق والمقابلة في خطبهم فتفعل الصور الخيالية في النفس ما لا يفعله اداء الفكرة اداء حقيقيا مجردا من الخيال فلا غرو فهم المتأثرون بالقرآن .

يقول ابن الزبير بعد قتل الحسين .. رأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير ... ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينا ، وأخزى قاتل حسين (٢) .

وقوله : " لم يعزالله من كان الباطل معه ، وان كان معه الانام طرّا ولم يذل من كان الحق معه ،وان كان مفردا ضعيفا ... فان تقبل الدنيا عليّ لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وان تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين (٣) .

---

(١) الامالي ٢/٧٣

(٢) ادب السياسة في العصر الأموي / د . احمد الحوفي / ص ٣١٤

(٣) الخطبة السابقة عند الزبيريين

ثم العناية بالتعبير سواء في قوة العبارة وجزالتها أم العناية بالوقع بالسجع الجميل ٠

فمن الضرب الأول قول عبدالله بن الزبير حين قتل مصعب رحمه الله انا والله لا نموت حتف انوفنا ، ولكن قصعا بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا اسلام قط ٠

وقوله في الضرب الثاني حين قتل الحسين " لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه كثيرا في النهار صيامه ، والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شراب الحرام ٠

وقد رأينا في الخطب التي ذكرت انه استشهد بالشعر لان الشعر في ثقافته العربية الأصيلة ، وهو استشهاد يدل على براعة اختياره وعبدالله استشهد في خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين :

أبى لابن سلمى أنه غير خالد

ملاقي المنايا أيّ صرف تيمما

فلست بمبتاع الحياة بسبة

ولا مرتق من خشية الموت سلما (١)

---

(١) جمهرة خطب العرب جـ ٢ / ١٨٠

ثم استلم الحجر ، فتكاثروا عليه ، فحمل عليهم وهو يقول :

قد سنّ اصحابك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق

فأصابه حجر فصك جبينه ، فأدماه ، فقال :

ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أعقابنا تقطر الدما (١)

ثم لم يطل الوقت بابن الزبير ورهطه ليظهر بشكل عملي ، وقضى الله أمرا كان مفعولا . فمدته قضاها في تأسيس وحروب فكان حزبه أشبه بثورة طارئة .

---

(١) البيت لحسان بن ثابت كما في بلوغ الأرب للالوسي جـ١/ ١٠٥٠
وقيل للحصين المرى كما في ديوان الحماسة والشعر والشعراء/ ٦٣٠

الباب الثالث

التراجم

أ - علي بن أبي طالب

نسبه وصفاته :

هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . وكان آدم شديد الأدمة ، أصلع ، كبير الهامة ، الى القصر والامتلاء أقرب حسن الوجه ، ضحوك السن ، عريض المنكبين ، وثيق البناء ، عظيم اللحية ملأت صدره و منكبيه ، كثير شعر الصدر والكتفين . (١)

وكان الامام رضي الله عنه يعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن أخذه من ابي طالب أيام الضائقة ، وهو أول من أسلم من الصبيان .
وقالوا : انه اول هاشمي لأبوين هاشميين ، فاجتمعت له احسن الصفات والنبي صلى الله عليه وسلم يحبه أشد الحب ، لانه ربيبه الوفي وابن عمه الذي حماه ورعاه وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، و يحبه الله ورسوله لا يمس حتى يفتح الله له ، فدعا عليا ، وكان أرمد ، فتفل في عينيه وقال اللهم قه داء الحر والبرد . فكان يلبس كسوة الصيف في الشتاء و يلبس كسوة الشتاء في الصيف ، ولا يضره (٢)

و ذكر علي عند السيدة عائشة فقالت : ما رأيت رجلا أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، ولا رأيت امرأة كانت احب اليه من امرأته (٣)
وعندما عقد المؤاخاة بين المهاجرين والانصار أول الهجرة ، أخذ بيد علي فقال هذا أخي ، وعندما خرج غازيا خلفه في أهله ، وأمره بالاقامة

---

(١) البداية والنهاية ٢٢٢/٧ (٢) العقد الفريد هـ ٥٩/٥ (٣) المصدر السابق

فيهم فأرجف به المنافقون ، فخرج حتى أتى الرسول في سفره فقال له زعم المنافقون أنك انما خلفتني تخففا مني فقال " كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في اهلي واهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبيّ بعدي (١)

واعظم من ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم جمع فاطمة وعليا والحسن والحسين فألقى عليهم كساءه وضمهم الى نفسه ثم تلا هذه الآية * انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا *(٢) وكان علي رضي الله عنه يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقى منه شيئا ، ثم يفرش له ويقبل عليه ويتمثل بهذا البيت :

هذا جناي وخياره فيه
اذ كلّ جان يده الى فيه (٣)

شجاعته :

كان علي فارسا ، وسهما صائبا من مرامي الله عز وجل على اعداء الاسلام وهو شجاع الرأي والجنان ، نام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة هجرته للمدينة ، حضر معه جميع الغزوات ـ الا تبوك وكان أقرب المقاتلين مكانا من رسول الله ، فهو صاحب شجاعة نادرة ، بارز عمرو بن عبد ود فارس العرب المغوار فقتله (٤) فكان قتل علي ـ دون غيره ـ له هو العزاء

---

(١) ابن هشام ٢/١٥٠
(٢) سورة الاحزاب اية ٢٣
(٣) العقد الفريد جـ ٥/٥٩
(٤) البداية والنهاية ٧/٢٢٢

فيه وكانت اخته تتأسى بذلك وهي ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله
بكيته أبدا ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له
وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وكان علي رضي الله عنه ذا مروءة ونخوة فأمدت الفروسية شجاعته بمدد من مروءته تجلت في كل مواطن الطعان ، فلم يبدأ أحدا بقتال ولا دخل معركة وفي قلبه ضغينة من قبل على عدوه ، وصلى في موقعة الجمل على اعدائه وقتلاه على السواء .

وكان علي رضي الله عنه في كل غزوة سيفا مسلطا على المشركين عند الزحف وكان الرسول يعتمد عليه في الحروب ويثق به كحمزة (١) وله دور خطير يوقع الرعب في قلوب الأعداء ويخرج للمبارزة قبل المناجزة فما بارز الا انتصر وجندل الأبطال من الاعداء وقد قتل عددا كبيرا من رؤوس الشرك في بدر وأحد والخندق وبني المصطلق ودافع عن رسول الله عندما انكشف المسلمون عنه يوم أحد ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أرسل عليه السلام أكابر اصحابه الى بني قريظة هزموا فلما بعث عليا بالراية استنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وكذلك في خيبر .

ورغم شجاعته كان يوصي اصحابه لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم .... واذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، واذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبرا ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، واذا وصلتم الى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من اموالهم شيئا ولا تهيجوا امرأة بأذى ،

---

(١) ابن هشام ٣٠/١٠٠

وان شتمن اعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فانهن ضعاف العقول والانفس لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات (١)

مقتل أمير المؤمنين عليه السلام :

نقل من عدة جهات ان امير المؤمنين "عليه السلام" كان يقول دائما : ما يمنع اشقاكم ان يخضب هذه من هذا ؟ يعني لحيته بدم رأسه ، وكان اذا رأى عبد الرحمن بن ملجم "لعنه الله" ينشد :

اريد حياته ويريد قتلي

عذيرك من خليلك من مراد

وكان يقال له - اذا جرى على لفظة مثل هذا "يا أمير المؤمنين" لم لا تقتله فيقول : كيف اقتل قاتلي !! وهذا يدل على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بذلك في جملة ما أعلمه به. ومما يؤكد هذا ما روى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : مرض علي عليه السلام فدخلت عليه أعوده ، وعنده ابو بكر وعمر رضى الله عنهما فجلسا عنده ساعة . فأتى رسول الله صلوات الله عليه فنظر في وجهه ، فقال له ابو بكر رضى الله عنه يا نبي الله ، انا نراه لمائت فقال : (لن يموت هذا الآن ،ولن يموت حتى يملأ غيظا ولن يموت الا مقتولا) وكان علي عليه السلام دائما يحن الى ابن ملجم "لعنه الله" قال فلما دخل شهر رمضان من سنة اربعين كان علي عليه السلام يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين وليلة عند ابن اخيه ، عبدالله بن جعفر الطيار عليه السلام فاذا أكل لا يزيد على ثلاث لقم ويقول : انما هي ليلة او ليلتان ، ويأتي أمر الله وانا خميص ،

---

(١) شرح ابن الحديد ٢ : ٨١

فلم يمض الا ليال قلائل ، حتى قتله ابن ملجم وهو خارج من داره بالكوفة اول الفجر ، فجعل ينادى الصلاة " يرحمكم الله " فضربه ابن ملجم " لعنه الله " بالسيف على أم رأسه ، وقال : الحكم لله ، لا لك يا على ! وصاح الناس ، وهرب ابن ملجم ، فقال امير المؤمنين : لا يفوتكم الرجل . فشد الناس عليه ، فأخذوه ، واستتاب على عليه السلام في صلاة الصبح بعض اصحابه وأدخل داره فقال : احضروا الرجل عندى ، فلما حضر عنده قال : يا عدو الله ، ألم احسن اليك ؟ قال : بلى . قال فما حملك على هذا ؟ قال شحذته اربعين صباحا وسألت الله ان يقتل به شر خلقه . فقال امير المؤمنين : لا أراك الله الا مقتولا به . ولا اراك الا من شر خلق الله ثم قال عليه السلام النفس بالنفس ، ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان بقيت رأيت فيه رأيي يا بني عبد المطلب لا تجمعوا من كل صوب تقولون : قتل امير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي الا قاتلي . ثم التفت الى ابنه الحسن عليه السلام وقال : انظر يا حسن اذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل ، فاني سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) ثم وصى بنيه بتقوى الله تعالى ، وباقامة الصلاة لوقتها ، وايتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء ، وغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت للأمر والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش ثم كتب وصيته ، ولم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض صلوات الله عليه وعليه سلامه فلما قبض بعث الحسن عليه السلام الى ابن ملجم فاحضره . فقال للحسن هل لك في أمر ؟ انى والله أعطيت الله عهدا ألا اعاهد عهدا الا وفيت به . واني عاهدت الله عند الحطيم أن اقتل عليا ومعاوية أو اموت دونهما . فخل بيني وبين معاوية حتى أمضى واقتله ، ولك

عهد الله انى ان لم اقتله او قتلته وسلمت أن اجيء اليك حتى اضع يدى في يدك . فقال الحسن : لا والله حتى تذوق النار ، ثم قدمه وقتله وأخذه الناس فأدرجوه في بوارى وأحرقوه بالنار ،

وفي رثائه يقول ابو الأسود الدؤلي (١) :

ألا يا عين ويحك أسعدينا
ألا تبكى أمير المؤمنينا
وتبكى أم كلثوم عليه
بعبرتها وقد رأت اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا
فلا قرت عيون الحاسدينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا
بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا
وذللها من ركب السّفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها
ومن قرأ المثانى والمبينا
وكل مناقب الخيرات فيه
وحب رسول الله رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت
بأنك خيرهم حسبا ودينا

---

(١) بلاغات النساء والطبرى ١١٦/٤ ، ومروج الذهب ٤٤/٢ ،
ومروج الذهب ٣-٦-٨-٩ والاغانى ٣٣٤/١٢ وديوان ابى الاسود ٧٢/٧١
====

اذا استقبلت وجه أبي الحسين
رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخيـــــر
نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحق لا يرتاب فيـــه
ويعدل في العداء الأقربينا
وليس بكاتم علما لديــــه
ولم يخلق من المتكبرينا
ولا والله لا أنسى عليـــا
وحسن صلاته في الركعينا
كأن الناس اذ فقدوا عليـــا
نعام حار في بلد سنينا

والله لقد رثوه بالصفات التي فيه رضى الله عنه .

=== النسبه : نسبت هذه القصيدة لأبي الأسود الدؤلى . الا ان الاستيعاب قال ان اكثرهم يرويها لأم الهيثم بنت العريان . وفي بلاغات النساء لأروى بنت الحارث بن عبد المطلب وأبو الاسود هو: ظالم بن عمرو شاعر مجيد وأول من اخترع النحو . تابعي فاضل من المحدثين من شيعة علي توفي في البصرة عام ٩٩ بالطاعون .

نماذج من خطبه رضى الله عنه

خطبته الغـــراء :

الحمد لله الأحد الصمد ،الواحد المنفرد ،الذى لا من شيء كـــان. ولا من شىء خلق الا وهو خاضع له ، قدرة بان بها من الاشياء وبانت الاشياء منه فليست له صفة تنال ، ولا حد يضرب له فيه الامثال كلّ دون صفته تحبير اللغات ، وضلت هناك تصاريف الصفات وحارت دون ملكوته مذاهـــب التفكير ، وانقطعت دون علمه جوامع التفسير ، وحالت دون غيبه حجب تاهت في ادنى دنوها طامحات العقول ، فتبارك الله الذى لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ،وتعالى الذى ليس له نعت موجود ،ولا وقت محدود ، وسبحان الذى ليس له اول مبتدأ ، ولا غاية منتهى ، ولا آخر يفنى ، وهو سبحانه كما وصف نفسه ،والواصفون لا يبلغون نعته ، احاط بالاشيـــاء كلها علمه واتقنها صنعه ، وذللها أمره ، وأحصاها حفظه ، فلا يعـــزب عنه غيوب الهوى ، ولا مكنون ظلم الدجى ولا ما في السموات العلى الى الأرض السابعة السفلى ، فهو لكل شيء منها حافظ ورقيب ، أحاط بها الاحد الصمد الذى لم تغيره صروف الأزمان ، ولا يتطاده صنع شيء منها كان ، قال لما شاء ان يكون : كن ! فكان ،ابتدع ما خلق بلا مثال سبق ،ولا تعب ولا نصب وكل عالم من بعد جهل يعلم ، والله لم يجهل ولم يتعلم : احاط بالاشياء كلها علما ، ولم يزدد بتجربتها خبرا ؟ علمه بها قبل كونها كعلمه بها بعد تكوينها ، لم يكونها لتسديد سلطان ، ولا خوف زوال ولا نقصان ولا استعانة على ضد مناوىء ، ولا ند مكاثر ،ولكن خلائق مربوبون وعباد آخرون ،فسبحان الذى لا يؤده خلق ما ابتدأ ،ولا تدبير ما برأ ، خلق ما علم ، وعلـــم ما أراد ، ولا يتفكر على حادث اصاب ، ولا شبهة دخلت عليه فيما اراد ،

لكن قضاء متقن ، وعلم محكم ،وأمر مبرم ، توحد بالربوبية ،وخص نفسه بالوحدانية ، فليس العز والكبرياء واستخلص المجد والثناء ، واستكمل الحمد والثناء ، فانفرد بالتوحيد ، و توحد بالتمجيد ،فجل سبحانه و تعالى عن الابناء و تطهر و تقدس عن ملا مسة النساء ، فليس له فيما خلق ند ولا فيما ملك ضد ، هو الله الواحد الصمد ،الوارث للأبد الذى لا يلبد ولا ينفد ، ملك السموات العلى ، والاراضين السفلى ، ثم دنا فعلا ، وعلا فدنا ،له المثل الاعلى ، والاسماء الحسنى ، والحمد لله رب العالمين ،ثم ان الله تبارك و تعالى -سبحانه وبحمده- خلق الخلق بعلمه ثم اختار منهم صفوته ، واختار من كل خيار صفوته أمناء على وحيه ،وخزنة له على أمره ، اليهم ينتهى رسله ،وعليهم ينزل وحيه ، جعلهم اصفياء مصطفين أنبياء ،مهديين نجباء ، استودعهم و أقرهم في خير مستقر ، تناسخهم اكارم الاصلاب ، الى مطهرات الامهات ، كلما مضى منهم سلف انبعث لامره منهم خلف ، حتى انتهت نبوة الله وأفضت كرامته الى محمد صلى الله عليه وسلم ، فاخرجه من افضل المعادن محتدا ، واكرم المغارس منبتا ، وامنعها ذروة ، واعزها أرومة ،واوصدها مكرمة من الشجرة التي صاغ منها امناء ،وانتخب منها انبياء ،شجرة طيبة العود ، معتدلة العمود ، باسقة الفروع ، مخضرة الأصول والغصون ، يانعة الثمار ،كريمة المجتنى ، في كرم نبتت وفيه بسقت واثمرت ، وعزت فامتنعت ، حتى اكرمه الله بالروح الأمين ، والنور المبين ، فختم به النبيين ، وأتم به عدة المرسلين (وجعله) خليفة على عباده وأمينه في بلاده ، زينه بالتقوى وآثار الذكرى ، وهو امام من اتقى ،ونصر من اهتدى ، سراج لمع ضوءه ،وزند برق لمعه ،وشهاب سطع نوره ،فاستضاءت به العباد ، واستنارت به البلاد وطوى به الاحساب فأزجى به السحاب ، وسخر له البراق حتى صافحته الملائكة وأذعنت له الألسنة وهدم به اصنام الالهة ،

سيرته القصد ، وسنة الرشد ،وكلامه فصل ،وحكمه عدل ، فصدع صلى الله عليه وسلم بما أمره به ، حتى افصح بالتوحيد دعوته ، واظهر في خلقه لا اله الا الله ، حتى اذعن له (الخلق) بالربوبية ، وأقر له بالعبودية والوحدانية : اللهم فخص محمدا بالذكر المحمود والحوض المورود ، اللهم آت محمدا الوسيلة والرفعة والفضيلة واجعل فى المصطفين محلته وفي الاعلين درجته ، وشرف بنيانه وعظم برهانه ، واسقنا بكأسه ، وأوردنا حوضه ،واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكثين ولا شاكين ولا مرتابين ولا ضالين ولا مفتونين ولا مبدلين ولا حائدين ولا مضلين ، اللهم اعط محمدا من كل كرامة افضلها ، ومن كل نعيم أكمله ، ومن كل عطاء اجزله ، ومن كل قسم أتمه حتى لا يكون احد من خلقك اقرب منك مكانا ،ولا احظى عندك منزلة ولا اقرب اليك وسيلة ، ولا اعظم عليك حقا ـ ولا شفاعة ، من محمد ، واجمع بيننا وبينه في ظل العيش ، وبرد الروح ،وقرة الاعين ونضرة السرور ، وبهجة النعيم ، فانا نشهد انه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة والنصيحة ، واجتهد للأمة وجاهد في سبيلك ،وأوذى في جنبك ، ولم يخف لومة لائم في دينك ، وعبدك حتى أتاه اليقين امام المتقين ، وسيد المرسلين ،وتمام النبيين ، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين : اللهم رب البيت الحرام ، ورب البلد الحرام ، ورب الركن والمقام ، ورب المشعر الحرام ، بلغ محمدا منا السلام اللهم صل على ملائكتك المقربين ، وعلى أنبيائك المرسلين ،وعلى الحفظة الكرام الكاتبين ،وصلى الله على اهل السموات واهل الارضين من المؤمنين . (١)

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ / ١٣٩ وما بعدها

خطبته الزهراء :[١]

الحمد لله الذى هو اول كل شيء ووليه ، وكل شيء خاشع له ، وكل شيء قائم به ، وكل شيء ضارع اليه ،وكل شيء مستكين له : خشعت له الاصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه الاوهام ، وحادت دونه الاحلام ، وانحسرت دونه الابصار ، لا يقضي في الأمور غيره ، ولا يتم شيء منها دونه ،سبحانه ما أجل شأنه ، واعظم سلطانه ، تسبح له السموات العلى ، ومن في الارض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة والحول والقوة ، يقضى بعلم ويعفو بحلم ، قوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، و كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة ، المطلع على كل خفية ، المحصى كل سريرة ، يعلم ما تكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور ، الرحيم بخلقه ، الروءوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم علم ما في نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه ، ومن مات منهم فاليه مصيره ، احاط بكل شيء علمه وأحصى كل شيء حفظه ،اللهم مالك الحمد عدد ما تحى وتميت وعدد انفاس خلقك ولفظهم ولحظ ابصارهم ، وعدد ما تجرى به الريح وتحمله السحاب ويختلف به الليل والنهار ، ويسير به الشمس والقمر والنجوم حمدا لا ينقضى عدده ، ولا يفنى أمده ، اللهم انت قبل كل شيء واليك مصير كل شيء وتكون بعد هلاك كل شيء وتبقى ويفنى كل شيء وانت وارث كل شيء ، احاط علمك بكل شيء وليس يعجزك شيء ، ولا يتوارى عنك شيء ، ولا يقدر احد قدرتك ولا يشكرك احد حق شكرك ، ولا تهتدى العقول لصفتك ، ولا تبلغ الاوهام حدك : حارت الأبصار دون النظر اليك

---

(١) العقد الفريد جـ ١٤٢/٤ وما بعدها

فلم ترك عين فتخبر عنك كيف انت وكيف كنت ، لا نعلم اللهم كيف عظمتك ، غير انا نعلم انك حيّ قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته اليك نظر ، ولم يدركك بصر ، ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر ، ادركت الابصار وكتبت الآجال وأحصيت الاعمال وأخذت بالنواصي والاقدام ، لم تخلق الخلق لحاجة ولا لوحشة ملأت كل شيء عظمة ، فلا يرد ما اردت ولا يعطى مامنعت ، ولا ينقض سلطانك من عصاك ،ولا يزيد في ملكك من اطاعك ، كل يسر عندك علمه ، وكل غيب عندك شاهده ، فلم يستتر عنك شيء ولم يشغلك شيء عن شيء ، وقدرتك على ما تقضي كقدرتك على ما قضيت ،وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف ، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات ، فاليك المنتهى وانت الموعد ، لا منجى الا اليك ، بيدك ناصية كل دابة ، وباذنك تسقط كل ورقة ، لا يعزب عنك مثقال ذرة ، أنت الحي القيوم ، سبحانك ما أعظم ما يرى من خلقك ، وما أعظم ما يرى من ملكوتك ، وما اقلهما فيما غاب عنا منه ، وما اسبغ نعمتك في الدنيا ، وأحقرها في نعيم الاخرة ، وما أشد عقوبتك في الدنيا وما أيسرها في عقوبة الاخرة ، وما الذى نرى من خلقك ، ونعتبر من قدرتك ونصف من سلطانك فيما يغيب عنا منه مما قصرت أبصارنا وكانت عقولنا دونه ،وحالت الغيوب بيننا وبينه ، فمن قرع سنه واعمل فكره كيف اقمت عرشك ، وكيف ذرأت خلقك ، وكيف علقت في الهواء سمواتك ، وكيف مددت أرضك - يرجع طرفه حاسرا ، وعقله مبهورا ، وسمعه والها وفكره متحيرا ،فكيف يطلب علم ما قبل ذلك من شأنك اذ انت وحدك في الغيوب التى لم يكن فيها غيرك ، ولم يكن لها سواك ؟ لا أحد شهدك حين فطرت الخلق ، ولا أحد حضرك حين ذرأت النفوس ، فكيف لا يعظم شأنك عند من عرفك ، وهو يرى من خلقك ما ترتاع به عقولهم ، ويملأ قلوبهم ، من رعد تفزع له القلوب ، وبرق يخطف الابصار

وملائكة خلقتهم واسكنتهم سمواتك ، وليست فيهم فترة ، ولا عندهم غفلة ولا بهم معصية ، هم أعلم خلقك بك ، وأخوفهم لك ، وأقومهم بطاعتك ، ليس يغشاهم نوم العيون ، ولا سهو العقول ، لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الارحام ، أنشأتهم انشاء ، وأسكنتهم سمواتك ، واكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الآفات ، ووقيتهم السيئات ، وطهرتهم من الذنوب . فلولا تقويتك لم يقووا ـ ولولا تثبيتك لم يثبتوا . ولولا رهبتك لم يطيعوا ، ولولاك لم يكونوا اما انهم على مكانتهم منك ، ومنزلتهم عندك وطول طاعتهم اياك لو يعاينون ما يخفى عليهم لاحتقروا أعمالهم ، ولعلموا انهم لم يعبدوك حق عبادتك ، فسبحانك خالقا ومعبودا ومحمودا ، بحسن بلائك عند خلقك ؟ أنت خلقت ما دبرته مطعما ومشربا ، ثم ارسلت داعيا الينا ، فلا الداعي أجبنا ولا فيما رغبتنا فيه رغبنا ، ولا الى ما شوقتنا اليه اشتقنا ، أقبلنا كلنا على جيفة نأكل منها ولا نشبع وقد زاد بعضنا على بعض حرصا لما يرى بعضنا من بعض فافتضحنا بأكلها واصطلحنا على حبها ، فأعمت الأبصار صالحينا وفقهائنا ، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة ويسمعون بآذان غير سميعه ، فحيثما زالت زالوا معها وحيثما مالت اقبلوا اليها وقد عاينوا المأخوذين على الغرة كيف فجأتهم الأمور ، ونزل بهم المحذور ، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون ، وقدموا من الآخرة ما كانوا يوعدون ، فارقوا الدنيا وصاروا الى القبور وعرفوا ما كانوا فيه من الغرور ، فاجتمعت عليهم حسرتان حسرة الفوت وحسرة الموت ، فأغبرت لها وجوههم وتغيرت بها الوانهم ، وعرقت بها جباههم . وشخصت ابصارهم ، وبردت اطرافهم ، وحيل بينهم وبين المنطق ، وان احدهم لبين أهله ينظر ببصره ، ويسمع باذنه ثم زاد الموت في جده حتى خالط بصره ، فذهبت من الدنيا معرفته ، وهلكت عند ذلك حجته ، وعاين هول أمر كان مغطى عليه فاخذ لذلك بصره ثم زاد الموت

في جده حتى بلغت نفسه الحلقوم ، ثم خرج من جسده فصار جسدا ملقى لا يجيب داعيا ، ولا يسمع باكيا ،فنزعوا ثيابه و خاتمه . ثم وضئوه وضوء الصلاة ، ثم غسلوه و كفنوه أدراجا في اكفانه . وحنطوه ،ثم حملوه الى قبره ، فدلوه في حفرته ،وتركوه فخلى بمفظعات من الأمور ، و تحت مسألة منكر و نكير مع ظلمة وضيق ووحشة القبر ،فذاك مثواه حتى يبلى جسده ويصير ترابا ، حتى اذا بلغ الأمر الى مقداره ، والحق آخر الخلق بأوله وجاءه أمر من خالقه ، اراد به تجديد خلقه - أمر بصوت من سمواته فمارت السموات مورا ، وفزع من فيها وبقى ملائكتها على ارجائها ، ثم وصل الأمر الى الأرض ، والخلق رفات لا يشعرون فأرج أرضهم وأرجفها وزلزلها ، وقلع جبالها ونسفها وسيرها ، ودك بعضها بعضا من هيبته وجلاله وأخرج من فيها فجددهم بعد بلائهم وجمعهم بعد تفرقهم يريد ان يحصيهم و يميزهم ، فريقا في ثوابه ، وفريقا في عقابه فخلد الأمر لأيده ، دائما خيره وشره ، ثم لم ينسى الطاعة من المطيعيين ولا المعصية من العاصين ، فأراد عز وجلّ أن يجازى هؤلاء ، وينتقم من هؤلاء ، فأثاب اهل الطاعة بجواره وحلول داره وعيش رغد ، و خلود أبد ، و مجاورة للرب ، وموافقة محمد صلى الله عليه وسلم حيث لا ظعن ولا تغيير ،وحيث لا تصيبهم الأحزان ، ولا تعترضهم الأخطار ولا تشخصهم الأسفار .
وأما أهل المعصية فخلدهم في النار ، وأوثق منهم الأقدام ، وغل منهم الأيدى الى الاعناق : في لهب قد اشتد حره ، ونار مطبقة على أهلها لا يدخل عليهم بها روح ،همهم شديد ، وعذابهم يزيد ، ولا مدة للدار تنقضى ولا أجل للقوم ينتهى .

اللهم انى أسألك بأن لك الفضل والرحمة بيدك ، فأنت وليهما

ولا يليهما احد غيرك وأسألك باسمك لمخزون المكنون ، الذى قام به عرشك وكرسيك وسمواتك وأرضك وبه ابتدعت خلقك ـ الصلاة على محمد ، والنجاة من النار برحمتك آمين انك ولى كريم .

من حكمه رضى الله عنه

قال ابو على : وحدثنا ابو بكر رحمه الله قال حدثنا ابو حاتم الاصمعى قال : بلغنى أن على بن ابي طالب رضى الله عنه كان يقول :

انما المرء في الدنيا غرض تنتضيل فيه المنايا ، ونهب للمصائب ومع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوما من عمره الا بهدم آخر من أجله ، ونحن أعوان الحتوف ، وأنفسنا تسوقنا الى الفناء ، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شىء شرفا الا أسرعا الكرة في هدم ما بنينا ، وتفريق ما جمعنا . فاطلبوا الخير وأهله . واعلموا ان خيرا من الخير معطيه ، وشرا من الشر فاعله . (١)

(١) الامالي ج ٢/٥٣

خصائص خطابتـــــــــه

كان الامام على مثلا في الفصاحة والبلاغة يوجز في موضع الايجـــاز ويطنب في موضع الاطناب وله من الخطب الطوال المشهورة ، الزهـــراء ، والغراء ، والبيضـــاء وهو أول من عالج الفنون الأدبية معالجـــــة فنيـــة فاستقام له الأسلوب مطبوعا ومصنوعا ولا عجب فهو القارئ لكتاب الله المتأثر بسياقه ونظمه وبيانـه فجاءت خطبه روائع أدبية بارعة .

سئل عبد الحميد الكاتب : ما الذى خرجك في البلاغة ؟ فقال حفظ كلام الأصلـــع : يعنى عليا . (١)

اسلوبه بقصر الفقرات ، والاستشهاد بالقرآن الكريم استشهادا ينبـــئ عن حفظ وتذوق له ، وفي خطبه اقتباس من الشعر ، واسلوبه يعــــج بالتشبيه والكناية والتمثيل ولا غرو فهو ابن قريش اهل الفصاحــــــــة والبلاغـــة .

(١) نهج البلاغة ١٤/١٥

٢ - زياد بن أبيـــه

ولد في عام الهجرة او قبله بقليل ، وأمه سمية ، وهى جاريـة فارسية وهبها ابو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كلدة وكان طبيبا يعالجه فولدت له على فراشه نافعا ثم ولدت ابا بكرة فأنكر لونه و قيل (قيل) له ان جاريتك بغى ! فانتفى من ابى بكرة و من نافع وزوجها عبيدا ، وكان عبدا لابنته فولدت على فراشه زيادا فلما كان يوم الطائف نادى منـادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسولـه فنزل ابو بكرة وأسلم ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الحارث بن كلدة لنافع . انت ابنى فلا تفعل كما فعل هذا . يريد ابا بكرة فلحق بـه فهو ينتسب الى الحارث بن كلدة . (١)

و وجه عامل من عمال عمر ابن الخطاب زيادا الى عمر بفتح فتحـه الله على المسلمين فأمره عمر ان يخطب الناس به على المنبر فأحسن فـي خطبته وجود ، وعند اصل المنبر ابو سفيان بن حرب وعلى بن ابي طالب فقال ابو سفيان لعلى ايعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ قال نعم قال : أما انه ابن عمك ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : أنا قذفته في رحم أمـه سمية . قال فما يمنعك ان تدعيه ؟ قال : اخشى هذا القاعد على المنبر يعنى عمر بن الخطاب أن يفسد على اهابى قال العتبى عن أبيه قال : لما شهد الشهود لزياد قام في اعقابهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلـه ثم قال : هذا أمر لم أشهد اوله ولا علم لي بآخره وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم و شهد الشهود بما سمعتم فالحمد لله الذى رفع منا ما وضـع

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ٢٤٧ / ٢٤٨

الناس وحفظ منا ماضيعوا وأما عبيد فانما هو والد مبرور او ربيب مشكور ثم جلس .

وقال زياد : ما هجيت بي قط أشد على من قول الشاعر :

فكر ففي ذلك ان فكرت معتبر
هل نلت مكرمة الا بتأمير
عاشت سمية ما عاشت وما علمت
أنّ ابنها من قريش في الجماهير
سبحان من ملك عباد بقدرته
لا يدفع الناس أسباب المقادير (١)

ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق وسرعان ما يعهد اليه عتبة ابن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلة تسجيل الغنائم وقسمها في الناس ما يدل على اتقانه الكتابة والحساب ، ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم ويوفده اليها ابو موسى الاشعرى الى عمر فيعجب بذكائه ولسنه ولكنه يأمر بعزله فيقول له : يا أمير المؤمنين أعن عجز أم خيانة صرفتنى ؟ فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكننى أكره ان احمل على العامة فضل عقلك . ويعود الى البصرة حتى اذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر واليها كاتبا له ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى اذا صار على البصرة ابن عباس جعله على خراجها وانابه عنه احيانا واظهر في اثناء نيابة له حنكة . (٢)

وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته فلما مات على رضى الله عنه

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ٢٤٨/٢٤٩

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٦٠ ، العصر الاسلامي د . شوقى ضيف ٤٢٣

وبايع الحسن معاوية عام الجماعة بقى زياد بفارس وقد ملكها وضبط قلاعها .
وامتنع زياد عن مبايعة معاوية نحو عام فكتب اليه يتهدده فقام في الناس
خطيبا وقال . (١)

" العجب من ابن آكلة الاكباد ، مظهر الخلافات ، مسر النفاق ورئيس
الاحزاب ومن انفق ماله في اطفاء نور الله كتب الي يرعد ويبرق عن
سحابة جفل لا ماء فيها والذى يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة ،
أفمن اشفاق عليّ فنذر وتعذر ؟ كلا ولكن ذهب الى غير مذهب وقعقع
بين صواعق تهامة ، كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله صلى
الله عليه وسلم وابن ابن عمه في مائة الف من المهاجرين والانصار .

فاغتم معاوية فأرسل الى المغيرة بن شعبة فلما دخل عليه قال :
لكل نباء مستقر ولكل سر مستودع وأنت موضع سرى وغاية ثقتى فقال المغيرة :
يا أمير المؤمنين ان تستودعني سرك نستودعه ناصحا شفيقا ورعا رفيقا فما
ذاك يا أمير المؤمنين؟. قال : ذكرت زيادا واعتصامه بأرض فارس ومقامه
بها وهو داهية العرب ومعه الأموال وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها
يدبر الأمور فما يؤمنني ان يبايع لرجل من اهل هذا البيت فاذا هو قد
أعادها جذعة قال له المغيرة أتأذن لي يا أمير المؤمنين في اتيانه ؟ قال
نعم فخرج اليه فلما دخل عليه وجده وهو قاعد في بيت له مستقبل الشمس
فقام اليه زياد ورحب به وسر بقدومه وكان له صديقا وذلك ان زيادا كان
احد الشهود الاربعة الذين شهدوا على المغيرة وهو الذى تلجلج في شهادته
عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فنجا المغيرة وجلد الثلاثة من الشهود

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/٩٧

وفيهم ابو بكرة اخو زياد فحلف (أبو بكرة) أن لا يكلم زيادا ابدا . فلما تفاوضا في الحديث قال له المغيرة : أعلمت ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ؟ ولا نعلم احدا يمد يده الى هذا الأمر غير الحسن وقد بايع معاوية فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى عنك معاوية قال : أشر عليّ وارم الغرض الأقصى فان المستشار مؤتمن قال أرى ان تصل حبلك بحبله و تسير اليه و تصير الناس أذنا صماء وعينا عمياء ! قال يا ابن شعبة لقد قلت قولا لا يمكن غرسه في غير منبته ولا مدرة تغذية ولا ماء يسقيه كما قال زهير :

و هل ينبت الخطى الا وشيجه
و تغرس الا في منابتها النخل ؟

ثم قال : أرى ، و يقضى الله . (١)

سكنت نفس زياد بعض السكون وأخذ يتراجع ، فصعد المنبر فخطب الناس فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه :

" أيها الناس . ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم وارغبوا الى الله في دوام العافية لكم فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالاضاحي في كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان (الجمل) (وصفين) ما ينيف على مائة الف كلهم يزعم انه طالب حق وتابع امام وعلى بصيرة من امره فان كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة كلا ليس كذلك ولكن اشكل الأمر والتبس على القول و قد نظرت في أمر الناس فوجدت أحدى

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ٢٤٩

العاقبتين العافية وسأعمل في اموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته فقد حمدت طاعتكم ان شاء الله . (١)

وسار زياد الى الشام واستلحقه معاوية بنسبه ودعا الناس الى الشهادة بما عندهم فيه فقال : " أيها الناس انى قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد فمن كان عنده شهادة فليقم بها فشهد ناس أنه ابن ابى سفيان وقد أقر به قبل موته فقام زياد فخطب وقد طابت نفسه فقال : " الحمد لله الذى رفع منا ما وضع الناس وحفظ منا ما ضيعوا فأما عبيد (٢) فانما هو والد مبرور أو ربيب مشكور " (٣)

سياسته :

كان زياد صاحب مدرسة فذة في السياسة برهن نجاحه فيها على جدارته بأن يعد واحدا من دهاة العرب الأربعة في عصره : معاوية ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد . (٤)

وعبقريته السياسية ظهرت حين اصبح واليا على فارس والعراق فكفاه شر أهل العراق وهو لم يستعن بجيوش الشام . وبقوة سياسته جعل

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ٦٩/٤

(٢) عبيد شخص كان ينسب اليه زياد

(٣) العقد الفريد ١٥١/٢

(٤) المصدر السابق جـ٥ /٧

كل قبيلة مسئولة عن سلوك افرادها فاستطاع ان يقمع كل محاولة لاثارة الفتن في العراق . وفي خارج العراق كان دقيقا في اختيار عماله اما لصحبتهم معه او من عرفوا بالتقوى والصلاح .

وتخرج من مدرسته السياسية الحجاج بن يوسف ولكنه لم يفلح في الجمع بين الشدة واللين وسياسة المصانعة ، وقد وازن عبّاد بن زياد بين الرجلين حين سأله عبد الملك عن أبيه وعن الحجاج فقال : " يا أمير المؤمنين ان زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم ، وداوى ادواءهم وضبط اهل العراق بأهل العراق . وقدمها الحجاج فكسر الخراج ، وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق . ولو رام منها ما رام به زياد لم يجئك الا على قعود يوجف به .

وحين تولى عبدالله بن العباس البصرة في عهد على وتولى زياد الخراج وبيت المال كان زياد مستشاره والناصح له ، وقد حدث أمران منذ ولاية ابن عباس فاستشار زيادا لما عرف من الفطنة وثاقب الرأى .

أولهما : حصول فتنة بين الناس بالبصرة ولم يدر ابن عباس كيف يخمدها فسأل زيادا رأيه فقال له : " ان كنت تعلم انك على الحق وأن من خالفك على الباطل أشرت عليك بما ينبغى ، وان كنت لا تدرك أشرت عليك بما ينبغى لك ". فقال له : " انى على الحق وهم على الباطل " فقال زياد : " اضرب من عصاك بمن اطاعك ومن ترك أمرك فانه أعز للاسلام أن تضرب عنقه وأصلح له فاضرب عنقه (١) ولما ولى زياد البصرة فيما بعد

---

(١) العقد الفريد

سلك نفس المنهج علم ابن عباس حينئذ أن زيادا أصابه الرأى .

والأمر الثاني : فتنة ابن الحضرمى . ففي عام ٣٨ هـ خرج ابن عباس الى الكوفة واستخلف زيادا على البصرة فأراد معاوية انتهاز الفرصة ليفسد البصرة على على رضى الله عنه وقد عرفت البصرة بعثمانيتها ، فوجه اليها ابن الحضرمى فلما قدم اليها التف حوله بنو تميم وكثير من اهل البصرة . وخشى زياد عاقبة الأمر فرأى أن خير ما يفعله هو الايقاع بين قبائل البصرة لئلا تجتمع عليه ، ولجأ اولا الى ربيعة طالبا حمايتها ، فلما آنس منها تلكؤا في نصرته لجأ الى الأزد فأجاره زعيمها صبرة بن شيمان وحماه . ثم أخذ زياد يخوف الأزد غدر بنى تميم ويزعم لهم ان هذه القبيلة تتحداهم وتفاخرهم بقوتها وشرفها ، حتى أفلح في الايقاع بين القبيلتين وفي اثارة الأزد على تميم وكان يقول بعد ذلك " ما كدت مكيدة قط كدت الى الفضيحة بها أقرب منى يومئذ لما غلبنى من الضحك .

* * *

(وبعد) فان كل ما قدمناه من عرض موجز يجعلنا نقول ان زيادا أبرع ولاة المؤمنين قاطبة ، عرف له معاوية قدره ، كان يرضى لرضاه ويغضب لغضبه وكان من اوضح الدلائل على ارتفاع مكانته عند معاوية أنه لم يأخذ البيعة ليزيد الا بعد وفاته ، وكان معاوية قد استشاره في الأمر فأشار عليه بالتريث .

* * *

هذا ، ولقد رأينا فيما سلق نموذجا من خطبه ، ونماذج من بلاغته وحسبنا ما ذكرنا لنفصل القول في خصائصه الأدبية .

خصائص خطابتـــــه

قال العتبى : كان زياد يقول " الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه ، والمسيء يعاقب باساءته ".

يقول في خطبته البتراء :

" لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف " والفرس يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى انو شروان من سيرة هذا العربى في اللين والمداراة . (١)

(٢) وأظهر ما يتسم به اسلوب زياد الارهاب والعنف والبطش . ومن قوله: " وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ،والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد " ويقول :

" وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاى "

ومعاوية شهد له بالشدة والغلظة حين كتب له " انه لا ينبغى لنا ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون انا للرأفة والرحمة . (٢)

(٣) وله مقدرة عجيبة في اداء الافكار بأوجز العبارات وذلك في خطبته حين كان حجر بن عدى على رأس جماعة من الشيعة يظهرون لعن معاوية

---

(١) الطبرى ١٠٥/٤ (٢) العقد الفريد جـ٥/١٠

والبراءة منه فقال : " أما بعد فان غب البغى والغى وخيم ، ان هؤلاء جموا فاشروا (١) وأمنونى فاجتروا علىّ وايم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم . (٢)

(٤) وزياد لايستشهد بالشعر في خطبه ولكن فيها امثال كقول :
" انج سعد فقد هلك سعيد " .

وقوله " ويل امك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان " (٣)

وقد يلجأ الى الأسلوب التصويرى كقوله :

" اتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات " .

(٥) ويمتاز اسلوبه بحسن التقسيم ودقة التفكير ، والقدرة على الاقناع بالحجة يقول في وصيته : " ان الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيتهم وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ، ومسىء بخذلان الله اياه . ولله النعمة على المحسن ، والحجة على المسىء فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه ، ورأى العبرة في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثر مما ليس له فيها ، فان الدنيا دار فناء ، ولا سبيل الى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عز وجل . فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل ان تصيروا الى الدار التي صاروا اليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم فيها أوبة (٤) .

---

(١) جموا اجتمعوا . اشروا كفروا بالنعمة

(٢) تاريخ الطبرى ١٤٣/٦ (٣) الطبرى ١٤٣/٦

(٣) البيان والتبيين ج١/ ٣٨٨

وفاتـــــه -

اختلف الرواة في سبب وفاته ، ومن ذلك ما يروى من انه كان جمع الناس بالكوفة ليأخذهم بالبراءة من علي ومن أبى عرضه على السيف ، فلم يلبث ان اصابه الطاعون وغيرها من الروايات المشكوك فيها . (١)

ولكن نستطيع ان نقول أن زيادا اصيب بالطاعون الدملي في اصبعه وقد استشار الأطباء في امره وبعضهم أشاروا عليه بالقطع والبعض بغمسها بالخل فلما صح عزمه على قطعها استشار شريحا قاضي الكوفة فأشار عليه ألا يفعل كراهة أن يلقى الله أجذم ، وفي قطعها فرار من قضائه وبغض من لقائه أو يعيش أجذم فيعير ولده بذلك ؟ فأخذ زياد برأيه ومات به ولام الناس شريحا لما أشار به على زياد فاعتذر اليهم بقوله عليه السلام ان المستشار مؤتمن . (٢)

وكان لوفاته صدى ارتياح عند خصومه والكارهين لبطشه وقد ذكروا أن عبدالله بن عمر قال حين بلغه وفاته " اذهب اليك ابن سمية فلا الدنيا بقيت لك ، ولا الآخرة أدركت " على انه لم يعدم اصدقاء أوفياء له ورثاه حارثة بن بدر الغداني بقوله :

أبا المغيرة والدنيا مفجعة	وان من غرت الدنيا بمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة	وكان عندك للنكراء تنكيـــر
لو خلد الخير والاسلام ذا قدم	اذا لخلدك الاسلام والخير (٣)

---

(١) راجع ابن عساكر ٥/ ٤٢١ ، ومروج الذهب ٢/ ٦٨ ، والطبري ٤/ ٢٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٢/ ٦٨ (٣) زهر الأدب ٤/ ٥٧ ، الخير ، الكرم والشرف

٣ - الحجاج بن يوسف

خطيب الأمويين

حياته :

(١) الحجاج بن يوسف ،كنيته ابو محمد ، ينتهي نسبه الى ثقيف الذى سميت القبيلة باسمه ،ولد سنة ٤١ هـ ومات سنة ٩٥ (٧١٣)م وكانت نشأته بالطائف وموته بمدينة واسط التي أنشأها ، وهم مختلفون في نسب القبيلة اختلافا كبيرا ومهما يكن من شيء فان قبيلة ثقيف أسلمت متأخرة ، وآذت النبي حينما خرج اليها بعد موت ابى طالب واشتداد قريش عليه ،آملا ان تسلم وتحميه ، فرده كبراؤها ردا قبيحا ، وأرسلوا وراءه سفهاءهم وغلمانهم فرموه بالحجارة حتى دميت عقبه ، وما زالوا على جاهليتهم الى العام التاسع بعد فتح مكة بعام فاسلموا .

(٢) وسنجد في بعض ما هجي به ان اسمه كليب ، ويقال ان امه سمته كليبا ، ولقبته الحجاج ، تفاؤلا ان يكون تقيا كثير الحج .

(٣) لطالما نال الناس من الحجاج وأبيه وأمه ،حقدا عليه ،وتشفيا منه وتنفيسا من الضيق الذى كانوا يجدون في حكمه .

ويذكرون ان الحجاج وأباه -أو أخاه- كانا معلمي صبيان بالطائف . قال أحد الشعراء في هجائه :

أينسى كليب زمان الهزال
وتعليمه سورة المدثر

رغيف له فلكه ما ترى
وآخر كالقمر الأزهر

ويذكر الجاحظ ان سليمان بن عبد الملك امر بعد أن استخلف ـ بشتم الحجاج ، فقدم وفد العراق يشتمه ، فقال احدهم : أن عدو الله كان زبابا لا نسب له في العرب .

ووصف مرة أخرى بأنه كان دباغا ، وصفه بهذا كعب الاشقرى ـ وكان من جند المهلب بن ابي صفرة ـ حينما كتب الحجاج الى المهلب يستبطئه في حرب الازارقة ويضعفه فأنشد كعب أبياتا منها :

ان ابن يوسف غره من غزوكم
خفض المقام بجانب الانصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا
ضاقت عليه رحيبة الاقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة
أيام كان محالف الاقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب الى المهلب ليوفد اليه كعبا ، فبعثه الى عبد الملك بن مروان ، ومعه كتاب شفاعة ، فاستنشده عبد الملك ما قال ، فأعجبه وكتب الى الحجاج ليعفو عنه ، فلما دخل كعب على الحجاج قال : " ايه يا كعب معاودة الدباغ غنيمة "

فقال كعب أيها الأمير ، والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب أن أنجو منها ، وأكون حجاما أو حائطا . فقال الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين ما نفعك ما اسمع ، فالحق بالمهلب . وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويراه من اكاذيب الشعراء (١)

---

(١) العقد الفريد جـ ٥

ولم تنج أمه من الاقاويل ، فهي تارة زوجة للحارث بن كلدة الطبيب ثم طلقها ، وتزوجها بعده يوسف الثقفي ، وهي تارة زوجة المغيرة بن شعبة ، سمعها عمر تنشد :

هل من سبيل الى خمر فأشربها

أم من سبيل الى نصر بن حجاج

فطلقها المغيرة وتزوجها يوسف .

أخـــلاقـــه :

(١) كان الحجاج سخيا في بذل المال لتأليف القلوب ، حكى انه لما دخل المدينة فرق على اهلها عشرة الاف دينار ، وقال لهم : اتيناكم وقد غاض المال لكثرة النوائب ، فاعذرونا . فقال له رجل : لا عذر الله من يعذرك وانت امير المصرين ، فقال الحجاج : صدقت واقترض أموالا من التجار ، وفرقها ..

وحكى انه لما ولي العراق كان يطعم في كل يوم عشرة الاف شخص ، وكان يرسل الرسل الى الناس ليحضروا الطعام ، فكثر عليه ذلك فقال أيها الناس رسولي اليكم الشمس ، اذا طلعت فأحضروا للغداء ، واذا غربت فاحضروا للعشاء ، ففعلوا ذلك. (١)

وكانت ام الحجاج الفارعة بنت همّار تقول كان الحجاج بن يوسف

---

(١) ادب السياسة / ٥١٣ د . احمد الحوفي .

يضع كل يوم الف خوان في رمضان وفي سائر الايام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة أنفس، وعشرة الوان ، وسمكة مشوية طرية ، وارزة بسكر ، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائدها يتفقدها . فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب مائتي سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون الا متأبطي خرائط السكر. (١)

و قصته مع ليلى الأخيلية معروفة :

اذ يروى في الاغانى عن سعيد بن العاص قال : كنت ادخل مع عنبسة بن سعيد بن العاص اذ دخل على الحجاج ، فدخل يوما فدخلت اليهما وليس عند الحجاج أحد الا عنبسة ، فأقعدنى فجيء الحجاج بطبق فيه رطب ، فأخذ الخادم منه شيئا فجاءني به ،ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق وجعل لا يأتون بشيء الا جاءني منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدى اكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجب فقال ، امرأة بالباب ؟ فقال له الحجاج : ادخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت ان ذقنه قد اصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرت فاذا امرأة قد أسنت حسنة الخلق ومعها جاريتان لها ، واذا هي ليلى الاخيلية ، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت : اخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرد . فقال لها : صفى لنا الفجاج ،

---

(١) العقد الفريد جـ٥/ ٢٥٦

فقالت : الفجاج مغبرة ، والأرض مقشعرة ،والمبرك معتل ، وذو العيال مختل ، والهالك للقل ، والناس مسنتون ، رحمة الله يرجون ، واصابتنا سنون مجحفة مبلطة ، لم تدع لنا هبعا ، ولا ربعا ، ولا عافطة لا نافطة ، اذهبت الاموال ، ومزقت الرجال ،واهلكت العيال ، ثم قالت : انى قلت في الأمير قولا ، قال : هاتى ، فأنشأت تقول :

أحجاج لا يفلل سلاحك انها الـ
منايا بكف الله حيث تراها
احجاج لا تعطى العصاة مناهم
ولا الله يعطى للعصاة مناها
اذا هبط الحجاج أرضا مريضة
تتبع اقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام (١) اذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله
دماء رجال حيث مال حشاها
اذا سمع الحجاج رزء (١) كتيبة
أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية
بأيدى رجال يجنبون صراها
فما ولد الابكار والعون مثله
ببحر ولا أرض يجف ثراها

---

(١) وأن كان هناك نقد على كلمة غلام الا ان لكل قبيلة لهجتها .

قال : فلما قالت هذا البيت قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت الى عنبسة بن سعيد فقال : والله انى لأعد للأمر عسى ألا يكون أبدا ، ثم التفت اليها فقال : حسبك ، قالت انى قلت اكثر من هذا ، قال : حسبك ! ويحك حسبك ! ثم قال : يا غلام ، اذهب الى فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فقال : فأمر باحضار الحجام ، فالتفتت اليه فقالت : ثكلتك أمك ! اما سمعت ما قال ، انما أمرك ان تقطع لساني بالصله ، فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضبا وهم بقطع لسانه وقال أردها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد وأمانة الله يقطع مقولي ، ثم أنشأت تقول :

حجاج انت الذى ما فوقه احد

الا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج انت شهاب الحرب ان لقحت

وانت للناس نور في الدجى يقد

ثم اقبل الحجاج على جلسائه فقال : اتدرون من هذه ؟ قالوا لا والله أيها الأمير ، الا انا لم نر قط افصح لسانا ، ولا احسن محاورة ، ولا املح وجها ، ولا ارصن شعرا منها ؟ فقال : هذه ليلى الاخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها ! ثم التفت اليها فقال : أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، فقالت : نعم ايها الأمير ، هو الذى يقول :

وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها

وقام على قبرى النساء النوائح

كما لو اصاب الموت ليلى بكيتها

وجاد لها دمع من العين سافح

واغبط من ليلى بما لا أنالـــه
بلى كل ما قرت به العين طائح
ولو أن ليلى الاخيلية سلمـــت
عليّ ودوني جندل وصفائـــح
لسلمت تسليم البشاشة أوزفـــا
اليها صدى من جانب القبر صائح (١)

قسوته وسفكه الدماء :

ذكروا انه قتل اكثر من مائة الف صبرا ، وان حبسه مات فيـــه اكثر من عشرين الفا ، لم يجب الحد على احد منهم وكان حبسه بغيـــر سقف ولا ظل صيفا وشتاء ، وكان مكتظا بالناس ، بعضهم الى بعض . وقد مر عليهم يوما فاستغاثوا به ، فقال اخسئوا فيها ولا تكلمون .

ولما أتى الحجاج باسرى الجماجم اتى فيهم بعامر الشعبي ومطرف ابن عبدالله الشخير وسعيد بن جبير ، وكان الشعبي ومطرف يريان التقية وكان سعيد بن جبير لا يراها ، وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان الى الحجاج في اسرى الجماجم ، ان يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهـــم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم انه موءمن فيضرب عنه ، فقال الحجاج للشعبي : وانت ممن ألب علينا مع بن الاشعث : اشهد علـــى نفسك بالكفر . فقال اصلح الله الامير ، نبا بنا المنزل ، واحزن بنا الجناب واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة اتقياء ، ولا فجرة اقوياء . قال : لله ابوك . لقد صدقت : ما بررتم بخروجكـــم علينا ولا قويتم ، خلوا سبيل الشيخ ، ثم قال المطرف : أتقر على نفسك بالكفر ؟

---

(١) الامالى ج١ / ٨٧

قال : اصلح الله الأمير ، ان من شق العصا وسفك الدماء ونكث البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين ، لجدير بالكفر ، فخلى سبيله .

ثم قال لسعيد بن جبير : أتقر على نفسك بالكفر ؟ قال : ما كفرت منذ آمنت بالله . فضرب عنقه .

ثم استعرض الأسرى ، فمن أقر بالكفر خلى سبيله ، ومن أبى قتله حتى أتى بشيخ وشاب ، فقال للشاب : اكافر أنت ؟ قال : نعم ، قال لكن الشيخ لا يرضى بالكفر . فقال الشيخ : أعن نفسي تخادعني يا حجاج ؟ والله لو علمت اعظم من الكفر لقلته . فضحك الحجاج وخلى سبيله . (١)

لما أسرف الحجاج في قتل اسرى دير الجماجم واعطى الاموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب اليه :

(أما بعد فقد بلغ امير المؤمنين بسرفك في سفك الدماء ، وتبذيرك في الأموال في الباطل ، ومنعك الحق ، ولا يحتمل امير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين ، في الدماء : في الخطأ الدية (١) وفي العمد القود (٢) وفي الاموال ردها الى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه . فانما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق واعطاء باطل ، فان كنت اردت الناس له ، فما اغناهم عنك وان كنت اردتهم لنفسك فما اغناك عنهم ، وسيأتيك من امير المؤمنين أمران : لين وشدة ، فلا يؤنسنك الا الطاعة ، ولا يوحشنك الا المعصية ، فظن بأمير المؤمنين كل شيء الا احتمالك

---

(١) العقد الفريد جـ٥/ ٢٨٦

(٢) القود : قتل القاتل

على الخطأ ، واذا اعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا ، وكتب في اسفل كتابه :

اذا انت لم تطلب امورا كرهتها
وتطلب رضائي بالذي انت طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلي هاربا
الى الله منه ضيع الدر حالبه
فان تر مني غفلة قرشية
فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وان ترمني وثبة أموية
فهذا وهذا كل ذا انا صاحبه
فلا تلمني والحوادث جمة
فانك مجزى بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك مني وان تعد
يقوم بها يوما عليك نوادبه
ولا تدفعن للناس حقا علمته
ولا تعطين ما ليس لله جانبه

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب اليه :

أما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري في الاموال ولعمري ما بلغت في عقوبة اهل المعصية ما هم أهله وما قضيت حق اهل الطاعة بما استحقره : فان كان قتلي اولئك

العصاة سرفا ، واعطاني اولئك المطيعين تهذيرا . فليسوغني(١) اميـــر المؤمنين ما سلف ، وليجد لي فيه حدا انتهى اليه ان شاء الله تعالى ، ولا قوة الا بالله ووالله ما على من عقل ولا قود ، ما اصبت القوم خطأ فأفديهم ،ولا اعطيتهم الا لك ولا قتلت الا فيك واما ما انا منتظره من امرك فألينهما عدة وأعظمهما محنة ، فقد عبأت للعدة الجلاد وللمحنة الصبر وكتب في اسفل كتابه :

اذا انا لم اتبع رضاك واتقـــى
أذاك ، فيومي لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنــة (٢)
تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
اسالم من سالمت من ذى قرابــة
ومن لم تسالمه فانى محاربــه
اذا قارف الحجاج (٣) منك خطيئة
فقامت عليه في الصباح نوادبه
اذا انا لم ادن الشفيق لنصحه
واقصى الذى تسرى الى عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى
مصاولتى والدهر جم نوائبـــه
فقف بي على حد الرضا لا اجوزه
مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه (٤)
والا فدعنى والامور فأننـى شفيق رفيق احكمتنى تجاربـــه

---

(١) فليسوغنى : فليقرنى على ما فعلت (٢) الجنة : الوقاية
(٣) قارف : اقترفه ، وجملة قامة عليه نوادبه جملة دعائية في الشر
(٤) الدرحالبه : كناية عن الاستحالة اذ كيف يستطيع حالب اللبن ان يرده

====

فلما انتهى كتابه الى عبد الملك ،قال : خاف ابو محمد صولتي ولن اعود لشيء يكرهه . (١)

خطبه الوعظية :

وخطب الحجاج يوما فقال :

أيها الناس ، قد اصبحتم في اجل منقوص ، وعمل محفوظ ،رب دائب وساع لغيره ، والموت في اعناقكم ،والنار بين أيديكم ،فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا احياء ، وكل ما ترونه ذاهب هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والاكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ثم طلعت قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله والصراط منصوب ، وجهنم تزفر(٢) وتتوقد وأهل الجنة ينعمون ، في روضة يحبرون (٣) جعلنا الله واياكم من الذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٤)

التعليق :

كان الحسن البصرى رحمه الله يقول " ألا تعجبون من هذا الفاجر

=== الى الضرع ثانية والرشيد يستشهد بقول القائل حينما عقد البيعة للأمين واراد العدول عنها للمأمون .

لقد بان وجه الرأى لى غير انني غلبت على الامر الذى كان احزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما توزع حتى صار نهبا مقسما

(١) ادب الكاتب / ٢٣٦ (٢) زفرت سمع لتوقدها صوت

(٣) يحبرون اى يسرون بنعم الله (٤) شرح ابن الحديد م١/ص١٠٥

يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله في قوله و يخالفه في فعله. (١)

و بط له من قسوة كان له رحمة ورأفة .

فقد أتى الحجاج باسرى من الخوارج ، فأمر بضرب اعناقهم فقدم فيهم شاب فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما احسنت في العفو . فقال : أف لهذه الجيف . ما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل .

وأتى الحجاج بأسرى ، فأمر بقتلهم ، فقال له رجل منهم : لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيرا : فان الله تعالى يقول * فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء * فهذا قول الله في كتابه . وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الاخلاق .

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم

اذا اثقل الاعناق حمل القلائد

فقال الحجاج : ويحكم أعجزتم ان تخبروني بما اخبرني هذا المنافق ؟ وأمسك عمن بقي .

الهيثم بن عدي قال : أتى الحجاج بحرورية ، فقال لاصحابه ، ما تقولون في هذه ؟ قالوا لقتلها اصلح الله الأمير ، ونكل بها غيرها فتبسمت الحروية . فقال لها : لم تبسمت ؟ فقالت : لقد كان وزراء أخيك فرعون خيرا من وزرائك يا حجاج . استشارهم في قتل موسى فقالوا : أرجه وأخاه ، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي ، فضحك الحجاج وأمر باطلاقها .

---

(١) جمهرة خطب العرب جـ ٢ / ٣٠١

مميزات خطابته :

تتسم خطب الحجاج بميزات عدة ، فهي موحدة الموضوع مرتبة الأفكار الاسلوب يناسب المقام بعضه يشتمل على مقدمه ولو جملة تمهد للموضوع وله براعة في تأييد وجهة نظره و تدليل لرأيه بالذى يكفل الاقناع لدى خصومه ، فانه لما قتل ابن الزبير قال :

الا ان ابن الزبير كان من احبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ...

ولو كان شيء مانعا للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لان الله خلقه بيده ...

فلما عصاه اخرجه منها بخطيئته . وآدم اكرم على الله من ابن الزبير والجنة اعظم حرمة من الكعبة .

فكأنه يقيس شيئا بشيء .

حين عصى آدم ربه عاقبه بالخروج من الجنة .

وابن الزبير كان طائعا لكنه عصى فعجل له بالخروج من الدنيا عقوبة له ولكن هيهات ان يقاس مثل هذا القياس . ولكن الموقف اقتضاه ان يتمثل بهذا التمثيل .

(٢) يكثر من الاستشهاد بالقرآن : لانه حافظ للقرآن و قد علمه لتلاميذه فيجيد في اقتباس الاية التي تناسب المقام : كقوله في خطبته حين ولى العراق فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون "(١)

---

(١) الكامل للمبرد ١/١٨١ ، والبيان والتبيين ٢/١٦٤ ، وعيون الاخبار م٢/٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢/١٣٢

وقد فجع الحجاج بوفاة ولده محمد وجاءه بريد من اليمن بوفاة اخيه ففرح اهل العراق وقالوا انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فقام خطيبا وقال :

ايها الناس : محمدان في يوم واحد ! اما والله ما كنت احب انهما معي في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة

* ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون *(١)

(٣) وكذلك يكثر من اقتباس الشعر كما فعل حين ذيل جوابا لكتاب عبد الملك بن مروان من نفس البحر والقافية ، ثم انه كان كلفا بسماع الشعر وروايته فقد طلب من الفرزدق ان يرثى محمدا ومحمدا فقال الفرزدق :

لئن جزع الحجاج ما من مصيبة
تكون لمحزون أمض فأوجعا
من المصطفى والمنتقى من نقاية
جناه لما فارقاه وودعا
جناحا عتيق فارقاه كلاهما
ولو نزعا من غيره لتضعضعا
ولو أن يومي جمعتيه تتابعا
على شامخ صعب الذرى لتصدعا
سميا رسول الله سماهما به
أب لم يكن عند الحوادث أخضعا(٢)

---

(١) العقد الفريد جـ ٢/١٥٤ ، وسرح العيون ص ١٢٢

(٢) العقد الفريد جـ ٥/٢٨١

(٤) خطب الحجاج تمتاز بقصر الفقرات لما لها من قوة في التأثير ونرى فيها تهويلا وتخييلا ،ووسيلته الى هذا التهويل مقدرته البيانية فهو مولع بالتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل يقول " انى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها وكأنى انظر الى الدماء بين العمائم واللحى ".

ومن الكنايات الأدبية التى تمثل بها وتشهد بلباقته وبراعته :

اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه

وأقصى الذى تسرى الى عقاربه

فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى

مصاولتى والدهر جم نوائبه

ثم الموسيقى الناشئة عن سجع قصر الفقرات في قوله :

" ان الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والعصب ، والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ، ثم أفضى الى المخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وأفرخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا "(١)

اضافة الى السجع ،المنطق السليم كما في قوله ان الشيطان تدرج رويدا رويدا حتى وصل المخ وتمكن منه فحشاكم نفاقا وشقاقا ولعمرى هذه هي البلاغة والبيان .

ومات الحجاج في آخر ايام الوليد بن عبد الملك فتفجع عليه وقال : كان الحجاج جلدة وجهى كله .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٥ /وشرح ابن ابي الحديد م١: ص١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥

وقال الفرزدق في رثائه ليرضى بذلك الوليد بن عبد الملك :

ليبك على الحجاج من كان باكيا
على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملة لما اتاها نعيه
فجادت له بالواكفات الذوارف
وقالت لعبديها أنيخا فعجلا
فقد مات راعي ذودنا بالتنائف
فليت الأكف الدافنات ابن يوسف
يقطعن اذ يحثين فوق السقائف
فما ذرفت عينان بعد محمد
على مثله الا نفوس الخلائف (١)

.....

وصفوة القول ان الحجاج جمع بين بلاغتي السيف واللسان وبهما مهد الأمور لبني أمية .

* * *

(وبعد) فتلكم هي الخطابة في عصرها الذهبي ، العصر الاسلامي ، الذى أضفى عليها ما اضفى من غرر القرآن ، وصفوة البيان وروائع الأحاديث النبوية ، حتى صارت الى ما صارت اليه من القوة والازدهار ، وحتى قالوا ، وحقا ما قالوا ، (كانت المنزلة الرفيعة للشاعر في العصر الجاهلي ، وللخطيب في العصر الأموي وللكاتب في العصر العباسي) ... وسبحان من خلق الانسان وعلمه البيان .

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ / ٢٨٨

الخاتمة

الخطابة فن مشافهة الجمهور ، ومن ثم كانت بلاغ الرسل والأنبياء ووسيلة القادة والمصلحين في اداء رسالتهم التي وهبوا لها انفسهم وكرسوا لها حياتهم .

وقد رأينا فيما اسلفنا انها قديمة العهد ، وأنها ظاهرة طبيعية في الجماعات الانسانية ، منذ نشأتها تنشط حين يدب بينهم الخلاف ويحتدم النزاع وتفتر حين تستقر الأمور ويبلغ الأمن مبلغه ، كما ان لها المقام الأول في الصلح والاحلاف والمنافرات ، واستنهاض الهمم والعزائم في السلم وفي الحرب ، وغير ذلك مما يبدو على مسرح الحياة ، وتدعو اليه ضرورات المجتمع ، في كل زمان ومكان .

فلما ظهر الاسلام ، في رحاب الجزيرة العربية ، اعتمد عليها النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة ، وتدفقت بلاغته في خطبه الزاهرة التى مكنت لهذا الدين الحنيف ، والتي جعلت من القبائل المتنافرة المتناحرة أمة واحدة كانت خير أمة أخرجت للناس ، حملت من بعده — صلى الله عليه وسلم — عبء الدعوة بالتي هي أحسن ، كما حملت اعباء الجهاد في سبيلها حينما أذن لهم بالقتال بقوله تعالى ﴿ اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ﴾

وفي هذا المجال جدّت الخطابة ، وازدهرت بين بريق السيوف وطبعت بطابع اسلامي تصبخ له الآذان ، وتنشرح له الصدور المؤمنة .

اما بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد رأيناها بجلاء في الجملة المفردة ، والخطبة المطولة ، ولا غرو فقد أوتى جوامع الكلم وهو كما قال : " أدبني ربى فأحسن تأديبى " ..

كذلك كانت بلاغة الخلفاء الراشدين ، وقد رأينا كيف انها تجاوزت حدود الجزيرة ، وسايرت الجيوش الغازية ، المجاهدة في سبيل الله .. فهذا أبو بكر وهذا عمر ، كلاهما يوصى قادة الجيش ويذكرهم بتعاليم الدين ويرسم لهم طريق النصر تحت راية الاسلام .

وقد رأينا فى عهد عثمان الخليفة اللين كيف ثارت فتن داخلية موقف عثمان ببلاغة متدفقة يتجلى فيها أثر القرآن واضحا وخطب خطبة خرج فيها عن طبعه ، وصرح بما لم يكن له أن يصرح به وذلك صاغها بألفاظ جزلة واسلوب رصين مزدوج ، وحين قتل وانتهى الأمر بمعركة صفين ، واصطرعت فيها الاحزاب وصارت الخلافة الى على بن ابي طالب ، اصبح الناس بعدها ثلاثة فرق : الشيعة والخوارج ، والأمويون ، ولكل حزب نزعته ورجاله وخطباؤه ، ذلك كله كان مادة للخطابة في عصر الاسلام .

أما بلاغة على فان خطبه ـ رضى الله عنه ـ كانت خير نموذج يقتدى بعد خطب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو امام البلغاء بلا منازع وقد درست خطبته بعد مقتل عامله على الأنبار مستعينة بما حلله الأقدمون والمعاصرون لهذه الخطابة التي تعتبر عملا فنيا مثاليا تتجلى فيه عناصر الخطبة الناجحة قديما وحديثا . ثم خطبته بعد التحكيم وما فيها من صور بيانية رائعة أثرت في نفوس السامعين واحدثت تجاوبا من قبل المسلمين .

وكان ختام الباب الأول خصائص الخطابة في العصر الاسلامي في منهجها وصيغتها واسلوبها حيث يتراءى للقارئ صورة الخطابة الرائعة وما هيتها في هذا العصر ٠

وفي الباب الثاني قدمت تمهيدا لنشأة الأحزاب من حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلوب موجز ٠ ثم فصلت في الفصل الأول الشيعة وكيف ولدت هذه الفكرة على يد جماعة رأوا أن الامام عليا أولى الناس بالخلافة وأنه افضل الخلق بعد النبي وأن شيعه فرق متعددة تنسب كل فرقة لامام معين٠ وذكرت خطباء هم وأولهم الحسن بن علي وخطبته التي أخزى بها معاوية وعمرو بن العاص وعتبة والوليد ورأى معاوية فيه بأنه لا تطاق عارضته وخطبة السيدة زينب وهي ترى يزيد ينكت ثنايا أخيها بمخصرته وكلها أسى وحزن ومن اعظم ما قال الأخ لأخيه في العزاء وما قيل في اللوم والتقريع وانتهى الفصل الاول بخصائص خطب الشيعة السياسية المذهبية التي استمدت معانيها من هذه القيم معتمدة على القرآن الكريم ٠

وفي الفصل الذي تلاه ذكرت الخوارج الذين عرفوا بالشراة وبذلوا ارواحهم في سبيل الله ، ولهم من الفصاحة والبلاغة ما شهد به عبد الملك ومن الشجاعة النادرة ما حملته بين دفتيها كتب الأدب بما يسحر الألباب من عظيم الصنع وهو الصبر على القتال والاخلاص للعقيدة مما يجعلهم يستعذبون الاستشهاد في سبيلها وفي نفس الفصل ذكرت خطبة أبي حمزة الشاري الذي وضح فيها انبل صفات الخوارج ومبادئهم ٠

وحينما استقر الأمر في بني أمية وانتهى الى انتصار السياسة الأموية على الشجاعة الهاشمية وأخذ معاوية يوثقه لأهله وذويه ويجعله فيهم وراثيا معتمدا على سياسته العملية فجاءت الخطابة ترسم لنا الصراع القوى الصاخب بين الأمويين والهاشميين وهو أوسع الفصول دراسة وفي عهد يزيد كانت موقعة الحرة واباحة المدينة وقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فكانت الخطابة سجلا ادبيا للحرب الأهلية الطاحنة ٠

وفي عصر عبد الملك بن مروان يشتد الصراع بين الاحزاب وينزل الى المعركة بلسانه وسيفه ويرمى اهل الكوفة بزياد ، والخوارج والزبيريين بالحجاج وكل منهم له باع ونفس طويل في الخطابة يتجلى ذلك في خصائصهم التي فصلت القول فيها ولا يسعني المقام أن اعيدها في الخاتمة ٠

وآخر الاحزاب دراسة حزب الزبيريين الحزب الذى قضى عليه عبد الملك بالحجاج في مهده ، وكان قائد الحزب عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب اللذان دافعا عن حزبهما ببلاغة ناصعة تجلت فيها بلاغة القرآن وفصاحته ، فخطبة مصعب كانت آيات من كتاب الله ، وخطبة عبد الله وحواره مع أمه روائع فنية لم يعفها الزمن بل زادها جدة وأصالة ، ثم ختمته بخصائصهم الأدبية ٠

وعلى هذا قد جلوت ما جلوت في دراستى وبينت الصراع بين الأحزاب وكل حزب يزعم أنه على حق وأنه وحده على هدى بل كل حزب يكفر الآخر ونقرأ في خطب كل حزب انه يرجو من الله التأييد والرعاية على اعدائه وقد حللت بعض خطب الأحزاب واستخرجت ما اشتملت عليه من الوان البيان والبديع واختتمت البحث بدراسة موجزة لحياة علي وخطبه وبلاغته ثم زياد والحجاج وهما اللذان رصعا تاج الخطابة بالدرر والغرر حتى صح القول بأن العصر الأموى هو العصر الذهبي للخطابة ، ورب قول أنفذ من صول كما يقولون ٠٠٠

فوزية عباس خان

المصادر والمراجع

الكتاب	المؤلف	الناشر
	(أ)	
أدب السياسة	د • احمد الحوفى	نهضة مصر
اعجاز القرآن	الباقلانى	السلفية
اعجاز القرآن	الرافعى	الاستقامة ١٩٥٤
الاستيعاب	ابن عبد البر	القاهرة
الأغانى	الاصفهانى	دار الكتب المصرية
الأمالى	القالى	دار الكتب المصرية
الامامة والسياسة	ابن قتيبة	القاهرة ١٣٢٢هـ
	(ب)	
البداية والنهاية	ابن كثير	السعادة ١٩٣٢
بلاغات النساء	ابن طيفور	القاهرة
بلوغ الأرب	الألوسى	الرحمانية بمصر
البيان والتبيين	الجاحظ (ن • هرون)	الطبعة الثانية
	(ت)	
تاريخ ابن عساكر		القاهرة
تاريخ ادب اللغة العربية	جورجى زيدان	الهلال ١٩٣٦
تاريخ الاسلام السياسى	د • حسن ابراهيم	النهضة المصرية
تاريخ الشعر السياسى	احمد الشايب	النهضة المصرية
تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	الاستقامة ١٩٣٩
تهذيب الكامل	السباعى بيومي	مطبعة العلوم
	(ج)	
جمهرة خطب العرب	جمع احمد صفوت	الحلبى ١٩٣٦
	(خ)	
الخطابة	ارسطو (ترجمة د •ابراهيم سلامة)	الانجلو المصرية
الخطابة العربية في عصرها الذهبي	د •احسان النص	دار المعارف بمصر
الخطابة في صدر الاسلام	د • طاهر درويش	دار المعارف بمصر

(د)

ديوان عبدالله بن رواحة	جمع د • حسن باجودة	دار التراث

(ذ)

ذيل الامالى والنوادر	القالـى	دار الكتب المصرية

(ر)

روائع الأدب	د • نبيه حجاب	دار المعارف بمصر
رياض الصالحين	احاديث نبوية	دار الكتاب العربي

(ز)

زهر الآداب	الحصرى (ت :زكي مبارك)	الاميريـة

(س)

سرح العيون	ابن نباتـة	الموسوعات ١ ١٣٢ هـ
السيرة النبوية	ابن هشام	الحلبي ١٩٣٦

(ش)

شرح نهج البلاغة	ابن ابـي الحديد	الحلبي
شعر الدعوة الاسلامية	عبدالله الحامد	جامعة الامام محمد
الشعر والشعراء	ابن قتيبـة	الحلبي ١٣٦٦ هـ

(ص)

صبح الأعشـى	القلقشندي	دار الكتب المصرية
صحيح مسلم		الحلبـى
الصناعتين	العسكري	صبيـح

(ع)

العقد الفريد	ابن عـبد ربـه	دار الفكـر
العقد الفريد	ابن عبد ربـه	الاستقامة ١٩٤٠
العرب قبل الاسلام	جورجي زيدان	الهـلال
العصر الاسلامي	د • شوقي ضيف	دار المعارف بمصر ط٤
عيون الاخبار	ابن قتيبـة	دار الكتب المصريـة

(ف)

فجر الاسلام	احمد امين	نهضة مصر
الفخرى في الاداب السلطانية	ابن طباطبا	الرحمانية بمصر
فن الخطابة	د • الحوفى	نهضة مصر
الفن ومذاهبه في النثر	د • شوقي ضيف	القاهرة ١٩٤٦
في الأدب الجاهلي	د • طـه حسين	الاعـتماد

	(ق)	
القاموس المحيط	الفيروز ابادى	المصرية ١٩٣٣
	(ك)	
الكامل في التاريخ	ابن الاثير	المنيرية ١٣٤٨
الكامل في اللغة	المبرد	التجارية ١٣٥٥
	(ل)	
لسان العرب	ابن منظور	الأميرية ١٣٠١
	(م)	
المجازات النبوية	الشريف الرضى	القاهرة
مجلة كلية الشريعة بمكة		العدد الاول ١٣٩٤/٩٣
مروج الذهب	المسعودى	البهية ١٣٤٦هـ
مواسم الأدب	العلوى	القاهرة
	(ن)	
نقد النثر	قدامة بن جعفر	بولاق
نهج البلاغة	جمع الشريف الرضى	القاهرة ١٣٢٨
نهاية الأرب	النويرى	دار الكتب المصرية

الفهـــــــــــرس